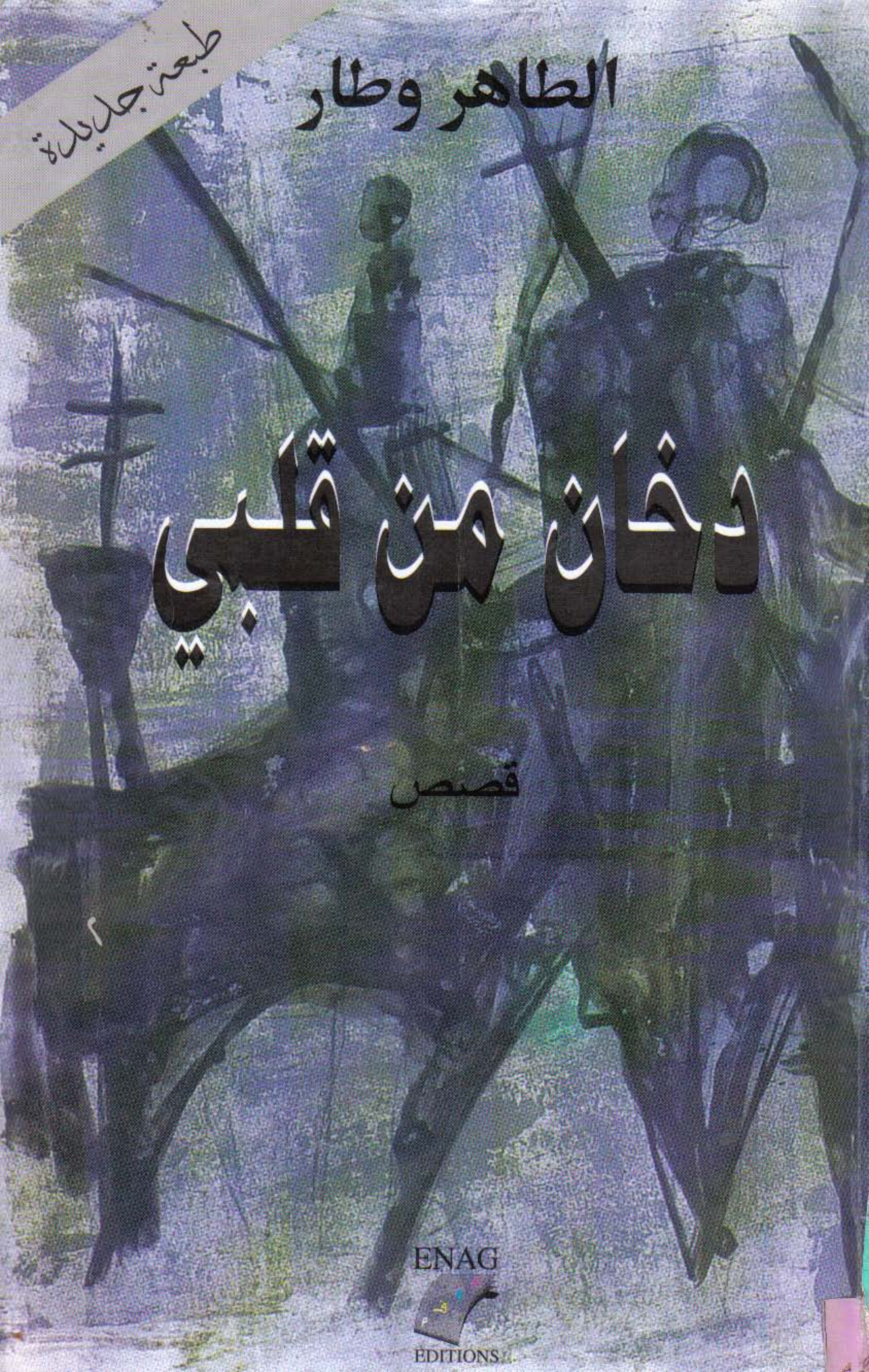

طبعة جديدة
الطاهر وطار
دخان من قلبي
قصص
ENAG
EDITIONS

دخان من قلبي

01 14 08 / 04
الإيداع القانوني / 2004 / 2297
ردمك 1 - 385 62 9961

الطاهر وطار

دخان من قلبي

قصص

موفم للنشر

الإهداء

إلى ن .ش

البسمة التي أومضت على ثغر وجودي الكئيب، ثم خبت قبل أن أملأ منها عيني الظامئتين.

السناء الذي أوقد جذوات قلبي فهفا بالحب ثم بالدخان...

إلى عشتروتي الطاهرة البريئة، أتقدم بـ "دخان من قلبي" كل ما في وسعي أن أتقدم به قربانا في الهيكل المقدس.

ط.و

تونس في 1960

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم الهادي العبيدي

رئيس تحرير الصباح

إذا كانت ملامح القصة في المشرق العربي أخذت تبرز وتتضح بعد سنوات طويلة عن ممارستها والتعثر في طريق إدراك فنونها وحذق أساليبها، فإن القصة في مغربنا العربي ما تزال بعيدة عن بلوغ مرتبة النضج والتبلور بعد.

وسر ذلك عائد إلى الفوارق بين جناحي العروبة من حيث سبق المجتمع المشرقي المكتمل بجنسيه واختلاطهما في المدرسة والإدارة والمعمل والنوادي مما يلون الحياة وينوع العلاقات والتفاعل على عكس المجتمع المغربي الذي كان منقوصا وجافا إلا منذ سنوات قليلة في العد كان الفضل في خصبها للانتفاضات الوطنية وحلقات الكفاح السياسي التحريري الذي أيقظ الرجل والمرأة واضطرهما إلى الوقوف معا في حرب الخلاص من العبودية الأجنبية.

ومنذ ذلك الحين أخذ المجتمع المغربي الذي يقوم على عناصره كاملة، أخذ يتبلور شيئا فشيئا ويتفاعل مع بعضه فأخذت معه القصة تظهر في الأدب كلون جديد غير لون المقال والقصيد يتسع أكثر لتصوير الحياة في مفهومها الشامل.

وهكذا أصبحنا نقرأ في الصحف والمجلات الصادرة بتونس وليبيا والمغرب الأقصوصة القصيرة، أما الجزائر فوضعها الاستعماري الكالح قد حرمها من هذا اللون إلا في النادر النزر ولما اندلعت الثورة التحريرية المذهلة كان من فضائلها في الميدان الأدبي أن تخلص الشعر الجزائري من المديح والوعظ وساهم في تغذية الثورة بروائع لو جمعت لملأت أسفارا ضخمة خالدة، وكان من فضائلها أن مهدت للقصة الظهور في الإنتاج الأدبي الجزائري الحديث، فكانت القصة التي تصف صمود الشعب المجاهد أمام قوى الاستعمار الطاغية، والقصة التي تخلد بطولات المناضلين وتتحدث عن الحياة الاجتماعية في الجزائر تحت الوطأة الاستعمارية.

فبرز شبان أنضجهم وهج الثورة لم يكن لهم ذكر من قبل في عالم الأدب وفاضت بإنتاجهم أعمدة الصحف والمجلات في مغربنا الكبير وحتى في المشرق، وبهذا تركزت القصة في الأدب الجزائري وستثبت وتترعرع في إنتاج ما بعد الاستقلال أكثر لأنها ستساهم في نشر مبادئ الثورة الإصلاحية التطورية مثلما ساهمت في تغذية روح الثورة سنوات الكفاح في النفوس.

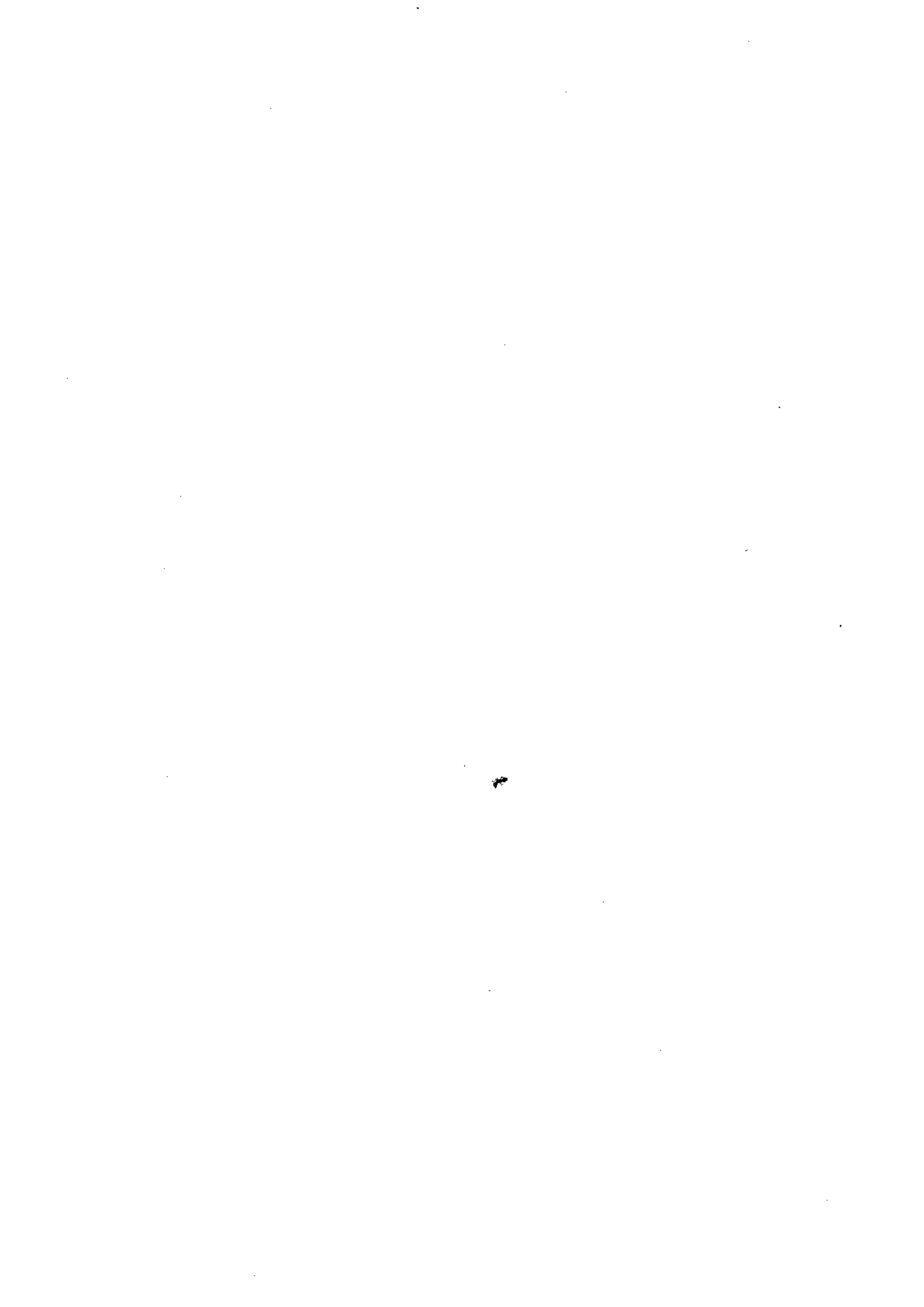
وفي هذه المجموعة التي يقدمها لنا الشاب الطاهر وطار - وليست هي كل إنتاجه في هذا الباب- في هذه المجموعة نلمس محاولات موفقة للقصة الجزائرية وإن لم تكن كل قصص المجموعة من القصص الثوري بل فيها اللون النفساني والاجتماعي مما يمثل الخوالج والأحاسيس والقضايا التي تتماوج في ذهن هذا الشاب وتشغله.

ولا أقول إن الطاهر وطار يسير في طريق كتابة القصة بتعثر ولكني أقول إنه يسير حذرا وبثبات وفي هذا ضمان للمعانه في المستقبل القريب إذا ما واصل انفعاله بأحداث مجتمعه ووعاها وتأمل جيدا عندما يحاول تصويرها.

إني أهنئ ابني الروحي "الطاهر وطار" على ظهور مجموعته القصصية الأولى وكلي أمل أن تكون الباكورة عنوانا على جودة وحلاوة الثمار عندما تنضج مع الأيام.

الهادي العبيدي

تونس 1960



حبة اللوز

إن غادرت مضجعي وأثرت ضجة وجلبة أكثر من خمس مرات في الليل، فذلك قليل.

فقد كنت شغوفا إلى حد كبير باصطياد الفئران وبعبارة صريحة، بمشاهدتها وهي تصارع الموت.. تتخبط بأرجلها الصغيرة وتستغيث بآذانها اللطيفة، وأنوفها الجميلة الدقيقة، وأسنانها العجيبة، وبكل جسمها الذي أرهبه، وأنزعج لو يلمسني، خاصة إذا كنت مستغرقا أفكر في موضوع جدي...

وكلما سمعت دوي المصيدة يمزق سكون الليل، وكثيرا ما أسمع ذلك - منذ انتقلت إلى المنزل الجديد، وكأنه دوي قنبلة، أو انفجار لغم، من عيار ثقيل.. ألقيت بالغطاء بعيدا، وأسرعت إلى إشعال الضوء والجري إلى المطبخ، حيث أجد خبيثا وقع في كمين، وحالما أبصره يصارع الموت، ويحاول التخلص من المصيدة أهتف بلهجة الظافر المنتصر:

- يا خبيث أتريد أكل اللوز..؟؟ كل وقل هذا ما جناه علي أبي.. يا لها من نهاية عجيبة تنتهي إليها أيها اللعين! إنها دعوات أمك المسكينة ولا شك.. ألا تستطيع أيها الفأر أن تكف عن الطمع، وتدخل الحياة من أبوابها..؟

وأستمر كذلك في الزمجرة واللعن والتشفي إلى أن يصرع الموت الفأر وتغادره الحياة، وتمتد ساقاه، ويشمله السكون وتلفه كآبة الموت، فلا حركات

جميلة رشيقة أحبها، ولا شيء، سوى نقطة دم في أنفه الجميل العجيب، وآنذاك أتناول المصيدة بكل حذر، كأنما أخشى أن لا يكون قد مات، وألقي بالجثة في صندوق الأوساخ، ثم أعيد نصب الكمين نصبا محكما بالغ الخطورة، وأغسل يدي جيدا وأعود إلى فراشي مرهفا سمعي إلى أن أسمع الدوي المهول، فأعيد الكرة.. ثم.. وثم.. حتى يغلبني النعاس فأنام -والحق يقال- مرتاح الضمير، هادئ البال، كأنما أنجزت عملا جبارا، والذي لا شك فيه هو أنه ليس نقص الفئران المتكاثرة في المسكن الذي يبدو أنه كان مهجورا، ليس ذلك ما يجعلني أنام مرتاح الضمير، بل هي ممارسة هوايتي العجيبة : مشاهدة الفئران وهي تصارع الموت بأرجلها الصغيرة وآذانها العجيبة وأنوفها الدقيقة إلى أن يصرعها الموت، وتبقى نقطة الدم في أفها، أو على المصيدة قرب حبة اللوز!

* * *

وكما يقولون : من لم يؤمن بالموت فلينظر حوله إلى ما شيد الناس وهجروه لغير رجعة.. كذلك أنا، ذات ليلة، فعوض أن أصيح بلهجة الظافر المنتصر - كالعادة - أمام الجثة التي تصارع الموت.. عوض ذلك داهمني حزن عميق، وأسف شديد ووقفت واجما، كأنما أرثى لتلك الجثة الهامدة. وفي رأسي كانت ألف علامة استفهام تتحرك... كما تتحرك الجيوش أهبة لشن هجوم أولصد غارة.

وبعد فترة، يعلم الله، أكانت قصيرة أم طويلة.. بلغ إلى مسمعي صوتي الخافت :

- إنه أنا، إنه ملايين الشباب.. ملايين الشباب مثلي، وليس الفأر... إن الشباب في نظر المجتمع العربي، بل، في نظر المجتمع العالمي، فأر، حب من حب وكره من كره...

ثم عدت إلى غرفة النوم، ثقيل الخطوات، متداعي الأفكار وفي مخيلتي ترتسم حبة اللوز في المصيدة، وقطرة الدم في أنف الفأر، وألف سؤال.. لم أصعد إلى السرير لأنام، بل جلست على مقعد، وأطرقت مفكرا، وبعد هنيهة ارتديت معطف الغرفة الصوفي، وتناولت مفتاح الباب الخارجي فأسرعت وأغلقته إغلاقا محكما.

كان ذلك بمثابة خطوة أولى في تنفيذ قرار تغيير البرنامج تغييرا كليا..

وحين عدت إلى مضجعي أقسم أن النوم لا يخامرني ولو ذرة واحدة منه، كما لو أني أنهيت المقدار الذي قدر لي أن أنامه في حياتي...

إن النوم وظيفة يؤديها المرء، وأنا لم أكن حينذاك متفرغا بل وحتى مستعدا لأداء هذه الوظيفة الإجبارية.. لقد كنت منشغل البال بشيء آخر.. إذ أني اعتقدت ألفا في ألف، إنني فأر مثل كل الفئران.. ولا أتميز إلا بالتفكير والتدبير، فلربما الفأر المسكين، حين تضطره ظروفه ووضعيته إلى الأكل، يتقدم إلى حبة اللوز، في المصيدة، يشتمها بأنفه الجميل، ويتأهب لقرضها بأسنانه العجيبة، دون أن يتعظ حتى بأخيه الذي قضت عليه حبة اللوز تلك بعينها. أما أنا، فإنني عكس ذلك.. رغم وضعيتي وظروفي اتخذت قرارا وعدلت عن البرنامج.. إنني اتعظت بالفأر دون أن أقصد ذلك ...!

وبينما أنا كذلك، أتخبط في لجج عاتية من الأفكار القاتمة، ويسودني اضطراب وقلق شديد إذ بالباب يطرق طرقا خفيفا. قلت في نفسي :

- ها قد جاءت! ترى هل أتركها تطرق حتى تيأس فتذهب أم أقوم وأفتح الباب، وحالما تدخل أصفعها صفعتين حادتين وأطردها شر طردة...؟

طرق الباب مرة أخرى، ولست أدري كيف نهضت بعصبية، وأسرعت دون أن ارتدي حتى معطف الغرفة الصوفي ففتحته.. وبالفعل كانت هي... دخلت فورا وارتمت علي قائلة:

- أكنت نائما..؟ لقد طرقت كثيرا! ألم نتفق على العاشرة؟

تخلصت منها ثم خطوت إلى الوراء خطوتين وفاجأتها... فاجأتها بصفعة على خدها الأيمن ثم بأخرى على خدها الأيسر.

فغرت فاها مشدوهة وظلت تنظر إلي بعينين حائرتين ذليلتين.. كنت أرتجف وأكاد أحطم أسناني، كنت في أوج الغضب... لا أفكر إلا في شيء واحد هو الانتقام.. الانتقام من المرأة، وحتى منْ نفسي! ولما تحركت شفتاها وهمت أن تتفوه بكلمة، وقد تساقطت دمعتان من عينيها السوداوين الكبيرتين.. انطلقت يدي اليمنى في جنون، فكانت صفعة ثالثة حادة جدا، وبأعلى صوتي صرخت:

- أغربي.. أخرجي، لا أريد أن تلتقي عيوننا منذ الآن...

ولت مذعورة، دونما التفاتة، وانقذفت خارج الباب فصفقته وراءها، ثم انتظرت حتى سمعت باب دارهم يفتح ثم يغلق.

عدت إلى غرفة نومي أزمجر ويداي في خصري :

- حبة اللوز.. نقطة الدم.. الفأر.. أرفض.. أرفض أن أكون جثة هامدة في مصيدة، وقرب فمي حبة لوز، وفي أنفي نقطة دم.. صحيح أنني فأر محكوم عليه أن يأكل. ولكن سرقة، غير أنني فأر ثائر، فأر يستطيع أن يقول : أرفض.

* * *

إستلقيت فوق السرير مصمما على النوم ولم أكن قرير العين ولا مرتاح الضمير، مثلما هو الحال، حين ألقى بفأر في صندوق الأوساخ وأعيد نصب المصيدة نصبا محكما بالغ الخطورة، وأعود إلى فراشي. كنت في الحقيقة حزينا ثائرا، مشوش الأفكار.

تململت قليلا، ثم شعرت بالهدوء يراودني، وابتسمت وأنا ألقي على نفسي السؤال التالي :

- هل أحسنت صنعا..؟ وهل كان قراري وجيها وعادلا..؟

وبطبيعة الحال، يكون جوابي على هذا السؤال، إعادة الحكاية من أولها، فتململت مرة أخرى، ثم أطلقت العنان لمخيلتي تستعيد خيوط الحكاية :

* * *

لم يكد يمر يومان على استقراري في المسكن الجديد حتى كانت ابنة جارنا، تقف أمام بابهم المحاذي لبابي كلما كنت خارجا أو داخلا، وتسلط علي نيران عينيها المبتسمتين تفحصانني، فحصا مدققا، محرجا جدا، خاصة وأنني زيادة على شيء من الاحتقار أكنه لها منذ فهمت من عينيها أشياء مريبة، من عادتي احترام الجار مهما يكن، الأمر الذي جعل كل جيراني السابقين يعطفون علي، فيتولون تنظيف محلي وترتيبه، وغسل ثيابي، ويأسفون أشد الأسف حين أغادرهم.

ولما بادرتني في اليوم الثالث بالتحية، لم أجد بدا من الرد عليها، فابتسمت وحركت شفتي، ولو أنني شعرت بعد ذلك، بالندم، وبقلق وخوف من مكروه متوقع، ما جعلني لا أعود يومها إلى المنزل إلا في ساعة متأخرة من الليل.

وانقضت أيام، أغادر المنزل مبكرا، ولا أعود إلا متأخرا لكي أنصرف إلى هوايتي، أنصب الكمين تلو الكمين، حتى يغلبني النعاس، واعتقدت أن الجارة الكريمة نسيتني، أو انصرفت عني، فراودني شيء من راحة الضمير والاستقرار، بيد أنه صادف في يوم أحد، أن نهضت متأخرا، وفتحت النوافذ، وكان صوت المذياع مرتفعا قليلا، فلم تمر إلا لحظات قلائل، حتى كان الباب يطرق ولما فتحته فوجئت بها.. هي جارتي!! بادرتني:

– صباح الخير.

– صباح الخير.. أهلا وسهلا...

– حضرتك منصور..؟

– نعم..!

– لأنه، البارحة جاء شاب يسأل عنك... بالله لماذا تتغيب كثيرا..؟ ...

تلفظت بالكلمات الأخيرة وفي عينيها رجاء وتوسل وظمأ. فأجبتها:

– شكرا: هل عرفت اسمه..؟

– كلا.. لم أكلمه، إنما سمعت مناديا باسمك وبابك يطرق فخرجت، ولما لم يجبه أحد تأمل الرقم ثم انصرف...

- أشكرك جدا يا آنسة..

- راضية.. لا شكر.. أرجو أن لا أكون قد أزعجتك..

- بالعكس يا آنسة راضية..!

- لا تتغيب عنا كثيرا !

قالتها وعيناها تقولان شيئا آخر، ثم ولت وسرعان ما دخلت، بينما أنا ما أزال واقفا.. لست أدري لماذا..؟

"إنما سمعت بابك يطرق فخرجت.. بالله لماذا تغيب كثيرا" مرت فترة طويلة وهاته الكلمات تأبى أن تنتزع من رأسي، وإلى جانب ذلك كانت تهب ريح أزمة نفسانية بين الحين والحين هوجاء غضبي...

ما الحكاية؟ ما البداية؟ ما النهاية؟ من هي؟ من أنا؟ ماذا تريد؟ ماذا أريد؟ وهل أنا أو هي، أريد أو تريد شيئا؟ القد المعتدل.؟ العينان الدعجاوان! الوجه الأسمر المستدير.! الحركات المريبة! تحذيرات "العطار" لي منها! هجومها العنيف! عزوبتي وشبابي! الفراغ المهول الذي يطغى على حياتي! مقدار مقاومتي.؟ وهل للمقاومة معنى؟ وإلى أي حد تكون..؟ لست أدري.. لست أدري..!

"إنما سمعت بابك يطرق فخرجت.. بالله لماذا تتغيب كثيرا"..

وأشياء كثيرة من هذا القبيل، تتجمع علي كلها في آن واحد، طيلة أيام، إلى أن نزلت إلى الميدان، والتقيت وإياها في الميدان..

صارت تأتيني رغبت في ذلك أو لم أرغب وصرت لا أغادر المنزل إلا أوقات العمل، ونسيت نفسي ومبادئ احترام الجار، وزال الاشمئزاز والقلق والخوف.

* * *

استفقت من غفوتي، ذات يوم.. كنت وإياها، نجلس على مقعدين متلاصقين ببعضهما، ومتلاصقين ببعضنا، نشاهد فلما سينمائيا.. وآليا صدرت حركة من يدي، فبادرت وأمسكتها ثم همست في أذني:

- لا تفكر في مثل هذا...

- لماذا !؟

- إن الإنسان لا يكون مالكا لقطعة أرض حتى يكون مالكا لعقدها!

- لكن لابد من مشاهدة الأرض ومعرفة موقعها وصلاحيته.

- لا تفكر في مثل هذا...

وسكتت وسكت، وحاولت أن انشغل بحوادث القلم، لكن البداية والنهاية، بداية علاقتي بجارتي ونهايتها، تراءت لي، فحالت بيني وبين الشاشة.

شعرت بالسأم والضجر فاقترحت عليها أن نغادر القاعة، وفي الطريق قلت لهـا :

- إن علاقتي بك يجب أن لا تتجاوز... لقد حان، أن أصارحك...

- لا يا سيدي.. ماذا تظنني؟ أوه.. إنني لست كذلك..

ذكرتني بحقائق قالها لي العطار، وفي انطباعاتي الأولى عنها.. فصممت على أن لا أجيبها، ولا أضيف أية كلمة أخرى.. غير أنها قالت:

- أمتزوج أنت يا منصور..؟

- كلا، إنما أمي صممت على أن تزوجني بابنة عمي، وبالفعل، تم ما أرادت وعقد قراني عليها...

ورغم أنني مصمم على أن لا أضيف إلى هذه الكذبة ما يمكن أن يكشفها، أضافت :

- أهي هنا.. أم بالبلدة..؟

– بالبلدة نقطن دارا واحدة..!

- منصورا لم لم تقل لي قبل الآن؟ لقد فهمت..!

- كان عليك أن تفهمي قبل الآن، اسمعي، اجعلي نصب عينيك أن العلاقة يجب أن لا تتجاوز...

- وإلا..؟

- وإلا كما تشائين.. لك نصف دينار...

- اخرس.. اخرس، لقد أهنتني أكثر مما أطيق، كان عليك أن لا تكلمني..!

- أنت التي كلمتني..

- بل أنت، لقد...

كنا قد وصلنا قرب الحي الذي نقطن فيه، فافترقنا. ومنذ ذلك اليوم، بدأت أتغيب كثيرا عن المنزل، أخرج مبكرا، وأعود في آخر الليل، إلى أن كنت داخلا ذات مساء والتحقت بي.

دخلت وأغلقت الباب نفسها... حدقت فيها.. كانت تبتسم. عيناها الدعجاوان كانتا تنمان عن شيء.. شيء يثير الأعصاب وكفى..

* * *

مرة أخرى لم أتمالك.. فنزلت إلى الميدان والتقيت وإياها في الميدان.. تعانقنا طويلا، حدجتني بعينيها الدعجاوين المثيرتين وقالت:

- مالك تراجعت.

وقبل أن أقول:

- كلا.. لم أتراجع ولن أفعل.

كانت أمها تنادي:

- راضية.. راضية..!

أبدت انفعالا، وقالت متكلفة الخوف:

- أخرج أنت الأول، وانظر إن كانت أمي وراء الباب أم لا..؟

ما أن فتحت الباب وخرجت، حتى كانت أمها قد اختفت.

وقفت لحظات أنظر يمينا وشمالا، ثم أشرت إليها بالخروج. كنت آنذاك في الحقيقة أشعر باشمئزاز وتقزز لم اشعر بمثلهما في حياتي، خاصة لما التفتت وهي داخلة تلوح بيدها، وتبتسم.. إلا أنني لَم أستطع أن امنعها من الاتصال بي، رغم أنها صارت لا تأتيني وتمكث قليلا، حتى ينبعث صوت أمها:

- راضية... راضية.

فتغادرني وهي تتكلف الخوف، وترتعد، وتطلب الستر من الله.

إلى أن كان هذا اليوم.. اتفقنا على أن تأتي في الساعة العاشرة، وتقضي معي بقية الليل، لأن أمها متغيبة عن المنزل وأباها اتفقت معه على أن تبيت عند خالتها – كما قالت –

وكاد الأمر أن يتم كذلك، لو لم أغير البرنامج في آخر لحظة، وأتخذ ذلك القرار الخطير، حين أدركت أنني والفأر سيان، بل وأنني أيضا فأر معرض لكل ما هو معرض له، ومثلي كل الشباب في بلادي.

تململت في فراشي وقلت:

- إنني لا أتجاوز حد الهذيان إنه الخوف فقط، أظن أنني أسأت التصرف، لقد كان علي أن لا أكون شديد التأثر بالمناظر إلى هذا الحد، ولاشك أن رد فعل ضميري من قتل الفأر الحيوان المسكين الذي قدر له أن يعيش لصا، كان بهذه الصفة، بالانتقام من المرأة، وبكبت النفس، إلا أن المهم هو أن أنام، أن أؤدي تلك الوظيفة الإجبارية البغيضة...

لم أكد أتململ مرة أخرى، محاولا وضع نفسي وضعا يسهل معه النوم، حتى كان الباب يطرق بعنف.. انفعلت واعتراني غضب شديد، لقد ظننت أنها هي..

عادت من جديد... ارتديت معطف الغرفة الصوفي وخرجت لفتح الباب. وأستقبل المفاجأة..

قال الرجل الطويل القامة الذي اقتحم الباب اقتحاما حالما فتحته:

- مفتش يا سيد منصور..!

- ستفتشني أنا.؟ أعني..؟

- ستعرف..

ثم التفت وراءه وقال آمرا:

- تفضلوا...

فدخل وراءه ثلاثة أعوان، طوال القامة مثله، وقف أحدهم بالباب، وسبقني هو وزميلاه إلى غرفة النوم... ورفعوا كامل الغطاء عن السرير، وتأملوا الفراش مليا، ونظروا كذلك تحت السرير، وداخل الخزانة، وفي كل زاوية.. ثم نظر إلي المفتش الذي اقتحم الباب اقتحاما، نظرة عميقة، وتقدم إلى الغرفة المجاورة... فتحها.. وأشعل الضوء، ولما وجدها خالية إلا من الجرائد والمجلات، ألقى عليها نظرة خاطفة، ثم تقدم إلى المطبخ وآنذاك قلت له:

- إنني لم أفهم يا سيدي المفتش عم تبحثون؟

- يبدو أنك لم تنم بعد..؟ أليس كذلك؟

فقلت وأنا أشير بإصبعي إلى المصيدة:

- إنني مغرم باصطياد الفئران يا سيدي المفتش، خاصة بمشاهدتها وهي تصارع الموت، إنها كثيرة في هذا المنزل، ولا أنام كل ليلة، حتى أكون قد اصطدت خمسة أو ستة.. إن الفأر يحب رائحة اللوز بالرغم من أنه قاس على أسنانه يا حضرة المفتش.

ابتسم وقال بلهجة تكاد تكون لينة :

- قل لي. هل لك علاقة بجارتك راضية..؟

- كلا، أبدا، اسأل العطار، إنني أقضي كامل اليوم خارج المنزل...

- أمها تقول إنك استوليت على لبها واستهويتها، وأنها تبيت عندك كل ليلة، وأنك تعدها بالزواج.. قل الحقيقة..؟

- لقد فهمت يا حضرة المفتش.. فهمت.. حين خرجت في الصباح ذاهبا إلى عملي استوقفتني، وطلبت مني أن اترك الباب مفتوحا، الليلة، وأنتظرها، لأن أمها متغيبة، ولكن حين عدت في المساء، ووجدتها بالباب عبست في وجهها ومنعتها من الدخول معي، لقد حذرني منها العطار أول يوم قطّنت هنا. إنها مثيرة حقا يا حضرة المفتش، ولكن منظرها مريب..

فحصني المفتش بعينيه الحادتين، ثم قال مخاطبا زميليه:

- يبدو أن المسرحية...

ثم استطرد:

- العفو يا سيدي منصور، حاذر، وسننظر في الأمر مليا.

مد يده مصافحا إياي، ثم خرج ومعه زملاؤه.. فأغلقت الباب خلفهم، دون أن أدري ما إذا كانوا قد ذهبوا كلهم أم ذهب البعض فقط.

* * *

كان أول ما فعلته قبل أن أعود إلى سريري، أن خلصت جثة الفأر من المصيدة وألقيت به وإياها وحبة اللوز في صندوق الأوساخ.

وقبل أن أنام عهدي بنفسي أردد :

"من لم يؤمن بالموت، فلينظر حوله إلى ما شيد الناس وهجروه إلى غير رجعة".

إنه أنا.. إنه ملايين الشباب مثلي.. وليس الفأر.. لقد نجوت من المصيدة بمعجزة، ولكن لست أدري كم من شاب مثلي، وقع فيها الليلة وفي هذه اللحظة بالذات؟..



صحراء ابدا

يمكن أن يكون الوقت. الثانية أو الثانية والنصف بعد منتصف الليل. عندما أمسك مصطفى يده اليسرى باليمنى وقربها من عينيه يبحث عن موضع الساعة التي أقسم المرار العديدة أن يبيعها، ويضيف إلى ثمنها ما يفي لشراء أخرى ذات أرقام وعقارب نيرة.

ويقين أن معرفة الوقت، لم تكن تهمه كثيرا، إذ اعتاد أن لا يستيقظ قبل الساعة الثانية بعد الزوال، منذ أن صار يشتغل بالليل.. ولو أنه سيناله التعب.. وتصبح شفتاه جافتين ووجهه أصفر شاحبا.. لأنه عمد أمس إلى أن ينهض مبكرا ليقضي يوم الأحد كما يقضيه الناس.

أما ما جعله ينظر إلى ساعته، وهو يعلم، سلفا، أنه لن يهتدي إلى أرقامها وعقربيها.. ويعرف أن مشكلة إبدالها ستتكرم عليه على الأقل بساعة أخرى أرقا.. هو هذه الرعشة التي سرت في جسده.. حين داعب خاطره هذا السؤال على حين غفلة :

- متى ستخرج من الصحراء يا مصطفى..؟

أعاد يديه إلى موضعهما دون أن يعرف الوقت.. وبقي السؤال الجهنمي يتكرر.. مرة وثانية.. وثالثة وعاشرة و.. و.. إلى أن صار يراه بعينيه.. وحيثما حولهما.. وسواء أغمضهما أم فتحهما.. يرى كل حرف وحده.. يرى الميم

والتاء.. وجملة الحروف. وكأنها لهيب.. وأسطع نورا بآلاف المرات من أرقام وعقربي الساعة التي ينوي أن يشتريها منذ سنة..

متى ستخرج من الصحراء يا مصطفى؟.. متى ستخرج من الصحراء يا مصطفى؟.. ستخرج.. الصحراء.. يا.. مصطفى.. متى؟ متى؟؟..

أبدا. لا شيء يلوح في الأفق، ينبئ بقرب ساعة الفرج والخلاص.. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق!!.

أرسل زفرة أقرب ما تكون إلى الأنين.. وتململ في فراشه.. وتململ، وأغمض عينيه.. وفتحهما.. ولكن عبثا يحاول إقصاء السؤال اللعين عن ذهنه، وطمس حروفه النارية من بين عينيه.. أو يشعر ولو بمثقال ذرة من النوم يراود أجفانه...

وفجأة، ألقى بالغطاء بعيدا عنه.. ولم يصغ إلى السرير تحته وهو يتشفع بصيحاته.. بل لم يحاول حتى أن يصغي لنفسه وهو يزمجر:

- الصحراء؟.. الحقيقة.، لا مفر من كلتيهما..؟

وأرسل قهقهة جنونية حين سمع الجدران ترد عليه : "لا مفر من كلتيهما.." وراح يواصل الضحك كلما تجاوبت أصداء قهقهته في الجدران حتى شعر بألم في بطنه.. وصداع في رأسه.. فوثب من سريره غير مبالي بأناته.. وكأنه هرة أوصدت عنها الأبواب في ليلة شتاء.. أشعل الضوء.. وبعد عناء فتح عينيه وأجالهما في البيت.. لم يكن يبحث عن شيء.. سوى ذلك اللهيب من الأحرف.. لكنه لم يجده ولم يجد أثرا للسؤال حتى في مخيلته...

وتمتم وهو ينظر إلى ساعته :

- طبيعي أن لا أنام قبل الساعة الرابعة.. فقد تعودت ذلك منذ سنة ونصف.

ثم تناول كتابا من فوق المنضدة التي تتناثر عليها بعض الكتب.. وأوراق.. وأعقاب سقائر.. فاضت عنها المطفأة.

كان كتاب "دع القلق وابدأ الحياة" من الكتب الضرورية التي لا يمكن بحال أن تختفي من فوق الطاولة حتى ولو كانت اللعينة سعاد تجلس أمامه.. وكأسا الخمر تتزاحمان فلا تجدان لهما مكانا بين الكتب والأوراق.. فهو لم يكتف بقراءتها مرة ومرتين وثلاثا.. مراجعة بعض فصولها كلما دعت الضرورة إلى ذلك.. بل لابد من تهدئة النفس بالعناوين.. "دع القلق وابدأ الحياة"، "عش سعيدا"، "إعرف نفسك" إلى آخره، كما لابد من تهدئة النفس حين صار يشتغل بالليل.. فكتب على السبورة بحروف غليظة "..لولا مزعجات الليالي.. لما ترك القطا طيب المنام"..!

رفع مصطفى بصره عن الكتاب عندما انتهى إلى هذه الكلمات : إذا أردت أن يداهمك النوم ففكر في إسعاد أحد.. وأجاله في البيت.

لم يكن هناك غير خزانة قديمة مرصفة بالكتب، ذكرته في جدته التي كان يختلس منها عصاها لكي لا ترافقه إلى "الكتاب". وبجانب الخزانة سرير لا يختلف تماما كلما اقترب منه عن "المدب".. وهنا وهنالك على الجدران بعض الثياب معلقة في مسامير أتى عليها الصدأ.. يكاد كل ثوب منها ينطق بتاريخ حياته في تونس، وفي هذا البيت بالذات الذي اشتراه له والده.. منذ أن نزح إلى العاصمة ليزاول تعلمه.. ولم يغادرها بالمرة إذ ذهبت عائلته ضحية غارة جوية شنها الألمان على الحلفاء، وصادر الدائنون أملاك والده.. فلم تبق في بلدته أية جاذبية تعيده إليها...

إن كل قطعة من هذه الثياب تكاد تكون هي بالذات إحدى السنوات العشر التي مرت.. وعين المناسبة التي اشتراها فيها.. مناسبة عمل بشـــركة كـــذا.. أو بجريدة كذا.. أو مناسبة عيد من الأعياد.. لا غير ..!

ومر شريط حياته في السنوات العشر، بسرعة.. سرعة فائقة، إذ ليس في حياته شيء يذكر.. ولما انتهى بصره إلى الصفحة التي كان يقرأ فيها، وإلى الجملة التي توقف عندها "إذا أردت أن يداهمك النوم ففكر في إسعاد أحد" ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه وتساءل :

- لماذا يا ترى يداهمنا النوم حين نفكر في إسعاد غيرنا؟

ثم استطرد :

- حسنا سأجعل بيتي سعيدا، سأضيف إلى ميزانية هذا الشهر خمسمائة فرنك.. سيكون لون "الدهن" أصفر بلا شك.. إنني أفضل اللون الأصفر على غيره من الألوان.. وأبي أيضا كان يحب اللون الأصفر.. ولو كانت أمي تفضل اللون الأخضر..

ثم طوى الكتاب وتناهض لإطفاء الضوء وبين شفتيه :

- حسنا سأوفر السعادة إلى بيتي..

وما كاد يستلقي على فراشه ويهدأ سريره من الصراخ والعويل، حتى أخذت النار تشب في البيت.. وتراأى له اللهيب الذي كاد ينصب عليه.. وعادت الحروف الجهنمية تتراقص حوله.. الصحراء.. متى.. الصحراء.. متى ستخرج منها يا مصطفى؟ متى ستخرج من الصحراء يا مصطفى؟.. متى؟.. متى؟.. وتقلب في الفراش. وتقلب.. وصرخ السرير.. وصرخ.. وطار النوم.. طار إلى مسافة يجزم مصطفى أنها تقدر بعشر سنوات أخرى..

- آه.. لو كانت اللعينة سعاد معي لفتحت المذياع، ونزعنا ثيابنا.. كلها.. ورقصنا رقصة الطيش.. لكن إلى متى، وسعاد هي لعبتي المسلية؟

أوف.. ما أشقى الإنسان إن تنبه إلى أنه يقضي حياته في التربص. في التربص لماذا؟.. الدفء.. الحنان.. الزهور.. الماء المنساب بين الأعشاب.. الأشجار المخضرة.. سئمت حياة الصحراء.. الصحراء يا رب.. الشمس ملهبة لا دفء فيها.. الرمال الممتدة على مدى البصر.. الصخور.. القحط.. القحل.. وهذا السكون البليد الذي لا ينتهي.. إني أريد الحياة.. الحياة، حياة أي إنسان.. أي إنسان يشعر أنه إنسان ويمارس إنسانيته بعيدا عن الصحراء والقحل والسكون البليد...

شعر مصطفى وهذه الأفكار تعصف برأسه، بخطورة الموقف ورثى لنفسه من هاته الحال التي آل إليها.. فهذه الكلمات.. هذه الكلمات.. هذه الأفكار غريبة عنه.. وخطرة عليه. وأبدا لا يسمح لنفسه بالاستمرار فيها.

وتأكد أن يثب من فراشه ويسرع إلى إشعال الضوء.. وأشعله.. وبعد لأي فتح عينيه، ومد يده إلى الكتاب قائلا :

- دع القلق وابدأ الحياة؟ أنا.. أبدأ؟. فقط أريد أن أدع القلق.. وأبدأ النوم. أما الحياة.. الحياة مسألة أخرى..!

وليس بد من الامتثال لأوامر في مثل هذه الحالات. فحمل مصطفى القلم وبدأ يكتب :

- ماذا أريد بالضبط؟؟ بالضبط...!!

لقد سئمت حياتي التي ليس فيها إلا العمل حتى الساعة الثالثة صباحا، والنوم كامل النهار.. وسعاد والخمر كل ليلة اثنين.. سعاد تلك اللعينة التي

تكلـــف ميزانيتي مصـــاريف باهظة .. نعم لعينة.. ولعينة ألف مرة.. إنك للعينة يا سعاد.. وملعونون كل من تخربين ميزانيتهم مثلي.. وملعونة حتى الخمر معك.. لكن الخمر؟ الخمر مسألة أخرى..!

بالضبط أريد قلبا.. قلبا لا ينازعني فيه أحد، مثل بيتي هذا.. قلبا لي.. أجل لي..!

ألا استحق قلبا؟.. بالعكس.. تماما.. إني أريد قلبا يغمرني بالدفء.. ويملأ حياتي بالأمل.. ويفعمها بالانتعاش.. فقد مرت عشر سنوات بأكملها.. لم اشعر فيها لحظة.. بالإخلاص والحنان والدفء.. الدفء المنبعث من الحبيب.. لأني لم أحاول أن أحطم أي قيد من قيود بلادي.. فأكون سببا في تعكير صفو والد.. أو حمله على السهر ليفكر في ابنته.. وفي اللص الذي يوشك أن يختلس قلبها.. أبدا لم أرض لنفسي أن أكون مختلسا أو مجرما.. ولم توجه لي هذه التهمة.. حتى بعد أن طرقت البيوت من أبوابها.. كما يقولون.. و"خطبت" فلم تفتح لي.. لم أحاول أن أدخلها من نوافذها أو سقوفها...

لقد كان رائدي كامل العشر سنوات التي مرت أن لا أتصادم مع المجتمع.. واكتفيت.. آه اكتفيت باللعينة سعاد.. تشرب معي كل ليلة اثنين ثم تنزع ثيابها في تثاقل وترنح.. قطعة، قطعة.. وتنحني عارية تماما لتساعدني على نزع ثيابي أنا الآخر.. وتتكلف عثرة لتهوى في أحضاني.. وأغمض عيني بينما شفاهنا تلتقي.. يا لها من سمراء.. قصيرة.. لعينة.. لقد كانت تحسن معاملتي.. حتى وأنا أطفئ الضوء.. وأتلمس الحائط لأصل إلى السرير.. أنسى ما سأدفعه لها غدا.. وأنها ستعيد نفس هذا الدور الذي أتقنته مع غيري بقية الأسبوع...

أليس من حقي أن أتوق إلى قلب مخلص؟.. بلى! والواجب يفرض ذلك.. وسأضرب غدا بكل القيم والتقاليد.. وبالمجتمع عرض الحائط.. كفاني.. ما عانيته في الصحراء.. سأ...

وفجأة توقف مصطفى عن الكتابة.. وبقى ساكنا كأنما يتتبع حركة أصابع يده اليسرى.. وهي تعبث بشعر رأسه الذي اشتعل شيبا.. ثم نقل القلم إلى أسفل الورقة وهو ساهم وخط : "سأبقى في الصحراء إلى الأبد" ولم يكد يرفع القلم قليلا عن الورقة.. حتى كانت دمعتان قد انسكبتا من عينيه.. وسقطتا على الجملة وامتزجتا بالحبر...

وبدون شعور، نهض مصطفى،وفتح الباب حتى تتمكن سعاد حين تأتي في الساعة الثامنة من الدخول بسهولة فلا ينتبه إليها الجيران.. وكانت الساعة السادسة حين استلقى في مضجعه.. وقد أخذ الضوء يتسرب من النافذة يبدد الظلام الذي كانت تبدو فيه الحروف الجهنمية كاللهيب.. ولم يطل الوقت حتى داهمه نوم عميق كالموت.



زنوبة

- ألو..؟

- ...

- نعم "لطفي" ومن تكونين أنت؟

- ...

- ماذا؟ هل يهمني أن أعرف من تكونين؟! أرجوك، ليس لدي متسع وقت للمزاح، ماذا تريدين؟

- ...

- حسنا! أنت "امرأة" وتريدين زيارة بيتي؟ لك ذلك، أعتقد أنه لا داعي لأن أعطيك العنوان.. فأنت تعرفين اسمي ورقم هاتفي.. أي وقت تفضلين؟

- ...

- اتفقنا

- ...

- إلى اللقاء.

* * *

وضع السماعة في حذر متناه.. ثم نظر إلى ساعته.. كان العقرب الصغير في النقطة الأولى بعد رقم "3" أما العقرب الكبير.. فإنه يتأهب لمغادرة الرقم "12"..

مائة في المائة الوقت الرابعة بعد الظهر.. كذلك يبدو لطفي منذ الوهلة الأولى إلا أن ما جعله يطيل التحديق في ساعته وينظر إليها مرات تربو على العشر، تلك الحال التي كان عليها من غير شك، فقد كان "مصروعا" كما يحلو له أن يصور حالته.

فكثيرا ما يكون لطفي عائدا إلى بيته.. والأفكار تنصب على رأسه بالقناطير، وتخرج بسرعة لتخلفها أطنان.. وقدماه لا تقويان على السير السوي فيصطدم بكثير من الخلائق.. أية حركة من حوله.. جرس دراجة أو صيحة بائع.. أو حتى ضحكة مرتفعة.. تزعجه، فينتفض، ويحس بخوف شديد، خوف من شيء لا يدري ما هو.. كثير من الوجوه تبتسم له محيية، فلا يتذكر أنه رآها أبدا قبل ذلك.. يده اليمنى ما تفتأ تمتد إلى جيبه لتخرج لفافة التبغ فتسرع اليسرى بدورها للوقيد.. يدخل الشقة التي يقطنها فيغلق كل النوافذ والأبواب وهو حاد المزاج، غاضب حانق، منفعل.. ثم يسارع بنزع ثيابه، ويبلل ريقه بجرعة ماء ثم يستلقي في فراشه، ويشرع في تنويم نفسه بطريقته المعهودة، التي لولاها لهلك أرقا، ولمزق أعصابه القلق.. ولفجرت رأسه تفجيرا أطنان الأفكار التي تدخل وتخرج في فوضى وعربدة.

أما طريقته التي يعود إليها الفضل في بقائه على الأقل خارج مستشفى المجاذيب بمنوبة، فسهلة جدا، وفي وسع كل أحد أن ينوم بها نفسه، متى شاء...

يدخل لطفي فراشه ويحكم الغطاء.. ويرهف سمعه إلى القصة التي يرويها عنه أبناء القرن الخامس والعشرين أو القرن السادس والعشرين في ذكرى ميلاده أو وفاته :

- في كل مدارس المعمورة وفي كل نادي من نواديها، وإذاعة من إذاعاتها تسمع : أدرك أبونا الرؤوف، لطفي، بحدسه أنه لا ينتمي إلى أب واحد أو أم

واحدة مثل الأغبياء الآخرين، إنما هو إنسان ابن الإنسان، فانفصل بكل بساطة عن عائلته معبرا بذلك عن ازدرائه بالعواطف البشرية الضعيفة الرخيصة، وقطن في شقة من عمارة متواضعة نسبيا.. وانصرف إلى الرسم ومطالعة الكتب التاريخية التي سماها فيما بعد "وجهات نظر مثقفين بدائيين". ولم تمر سنوات حتى أدرك أبو الإنسان الرؤوف لطفي أن قوة خارقة للعادة تكمن فيه، يتمكن بها من إقناع أي أحد يحدثه بوجهة نظره، ويكسب محبته وتأييده المطلق له لأول نظرة يلقيها عليه.. فشمر أبو الإنسان الرؤوف لطفي يعمل لصالح الإنسان، فأسس منظمة سرية في بلاده شعارها "الإنسان كل لا يتجزأ" و"الأرض دار تأوي أسرة واحدة هي المجموعة البشرية". وبسرعة فائقة انتشرت خلايا المنظمة في كامل بلاده، وأصبح كل فرد مناضلا فيها.. ثم طفق أبونا الرؤوف ينتقل من مكان إلى مكان حتى طاف الأرض كلها، وجمع بين قلوب كافة ساكنيها.. وكانت آنذاك حرب عامة على وشك الاندلاع، ولو اندلعت لما كنا اليوم، ولما كانت أرض.. آنذاك أصدر أبوها الرؤوف تعليماته، فخرج جميع الناس في يوم واحد وفي لحظة واحدة، في مظاهرة ضمت الرجال والنساء والأطفال، والجيش والبوليس، ولم يتخلف إلا الحكام الذين سرعان ما ذابوا وانمحى ظلهم إلى الأبد، وأعلن أبونا الرؤوف لطفي قراره التاريخي الحاسم : لا شيء يسمى دولة كذا أو دولة كذا كل ما هنالك هو الأسرة البشرية المتعاونة في تآخ وتحابب في سبيل سعادتها، ومن ذلك الحين انمحت من الأذهان فكرة الحروب وزال الشقاء والبؤس والمجاعة، وعمت الرفاهية والسلم واستمر الإنسان في البقاء والمحبة..

ولا يكاد لطفي يصل إلى هذا الحد من القصة التي ترويها عنه الأجيال القادمة حتى يكون قد غاب في سبات عميق.. وحالما يستيقظ، ومهما يكن

الوقت، يطهو طعاما خفيفا يتناوله ثم يحمل ريشته ويدخل الغرفة المجاورة ويشرع في الرسم إلى أن يحس بالتعب أو ينهي لوحة، فيرتدي ثيابه ويخرج ولا يعود إلا حين يكون يردد :

- إنني مصروع، فعلا مصروع.

ويعيد العملية.. يغلق النوافذ والباب، ويتناول جرعة ماء، وينوم نفسه.. كما كان سيفعل هذا المساء، لولا الهاتف، والحادثة التي جرت خلاله...

فبعد أن رفع لطفي يده وتأمل ساعته أكثر من عشر مرات حتى غادر العقرب الكبير رقم "12" وبلغ النقطة الأولى بعده أجال نظره في غرفة نومه.. كانت نظيفة نسبيا، لولا قليل من الغبار المنتشر على المذياع وعلى الخزانة والمنضدة التي عليها الهاتف وعلى جوانب المقاعد التي لا يستعملها عادة، واللوحات المنتصبة في الجدران هنا، وهنالك.. وكأنما اطمأن إلى صلوحية الغرفة لاستقبال الزائرة المجهولة، فلم يقرر تنظيفها، وإنما تقدم على المرآة ليطمئن إلى صلوحيته هو.. وما أن تراءت له نفسه.. حتى انتفض بشدة وعاد إلى الوراء مذعورا.. وبعد هنيهة استعاد فيها أنفاسه، وهدوء أعصابه.. تقدم إلى المرآة قائلا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة :

– قتلت الوحدة، ما أمرنها! لقد أصبح شبحي يخيفني! إني غريب حتى عن نفسي..!

***

اطمأن لطفي إلى الصورة التي انعكست في المرآة، فانفرجت أسارير وجهه، وتثاءب واستلقى على الفراش وراح يحدث نفسه :

- آلو.. حضرتك لطفي؟

- نعم، لطفي، ومن تكونين أنت؟

- أيهمك كثيرا أن تعرف من أكون؟

- ماذا؟ أيهمني أن أعرف من تكونين؟ أرجوك، ليس لدي متسع وقت للمزاح ماذا تريدين؟

- أنا امرأة. أريد زيارة بيتك، أيكفيك أن تعرف هذا؟

- حسنا ! أنت "امرأة" وتريدين زيارة بيتي، لك ذلك.. أعتقد أنه لا داعي لأن أعطيك العنوان.. فأنت تعرفين اسمي، ورقم هاتفي، أي وقت تفضلين؟

- لا داعي للعنوان، سأزورك في السادسة وخمس دقائق.

- اتفقنا

- إلى اللقاء

- إلى اللقاء.

تقلب لطفي مرات ثم أردف :

- شيء مدهش في الحقيقة.. وأعجب منه موافقتي بكل سهولة وبساطة على زيارة المرأة.. قبل أن اعرف حتى اسمها، وبمجرد أن ذكرت أنها "امرأة!" ترى لم كان ذلك؟ ألأن كلمة "المرأة" وجدت لها بسرعة صدى في باطني؟.. إذن فقد وافقت على زيارتها بدون إرادة مني.. إنه اللاوعي.. قد يكون ذلك هو الحقيقة.. بل إنه الحقيقة بعينها.. فأنا لم أعش لنفسي إلا قليلا.. ربما في الفترة التي كنت لا أفقه فيها معنى للمرأة.. أو لحظات متفرقة، حين أنهي لوحة وأقف أتأملها.. وفيما عدا ذلك، فإنني أعيش لغيري.. فشهر أو شهور وحتى أعوام أعيشها جريا وراء فتاة، وليس في رأسي أو في حياتي شاغل غيرها.. وشهور وأعوام وراء فتاة

أخرى.. موهما نفسي بأن ذلك معناه الحب.. وما أن أيأس من الوصول إلى تلك الفتاة حتى أتحول إلى أخرى.. قتل الحب إن كان هذا.. وقتل المحب إن كان مثلي.. إنه الكذب.. الزيف.. إنه العطش.. الجري وراء المرأة.. أية امرأة.

يا للحرمان...

كان علينا أن نميز بين غرائزنا.. وعواطفنا.. فلا يقع الخلط.. ويقع المرض والكذب.. فإن سمعنا صوت امرأة قلنا: "الأذن تعشق قبل العين".. وإن تقنا إليها في صورة واحدة نتذكرها قلنا : "عوجا على الطلل المحيف نبكي الديار" وإن التقت عينانا بعينيها قلنا : "إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا" مهما كان شكل تلك العيون.. إننا لو سمينا الأشياء بأسمائها، لرتبنا نتائج مساعينا.. واقتصدنا في طاقتنا، فلا تضيع سبهللا.

لعلنا ندرك كل هذا، ولكن لنبرر جنوننا وحمقنا نحاول إقناع أنفسنا بالحب.. بأننا أسوياء مثل الأخرين.. متجاهلين تقاليدنا وعاداتنا وظروفنا الاقتصادية.. إنه المرض.. الكذب.. العطش.. ومهما يكن.. فلكن الصفح يا من صرفت حياتي الماضية من أجلكن.. كلكن.. كلكن.. خاصة منكن "زنوبة".

إنك لم ترتكبي نحوي أي جرم.. يا زنوبة.. لقد ابتسمت لي كرجل وتعلقت بك كامرأة.. وفعلت ما كان في نطاق حدودك، ابتسمت لي وكلمتني بالإشارة ثم، وأخيرا سمحت لنفسك أسير معك وأكلمك.. كنت تشيرين إلى "الخطوبة" إلى الضمان.. وكنت لا أفهم ذلك.. وأحدثك عن الحب.. عن عذابي من أجلك.. كنت خياليا وكنت واقعية.. كانت تصرفاتك نحوي منطقية، حتى ما أتيته هذا المساء.

لقد أدركت يا زنوبة، أدركت.. الحب من الكماليات.. وفي أرضنا لم تتوفر لأحد حتى الضروريات.. سأمحو رأسك من كل صورك ولا أبقي إلا جسدك.. جسد امرأة بلا ملامح أو سمات.. سيكون ذلك بمثابة التسليم بالحقيقة، بل عين الحقيقة.

ولم يدر لطفي ما الذي دفعه إلى النهوض من سريره، فقد انتصب واقفا، ماسكا رأسه بيد ومستندا على الجدار بأخرى.. وبعد فترة راح يهمس بصوت خافت متهدج :

- لوحة تمثل موقف المسلم الواعي من المرأة.. خطوطها مسبحة مهشمة.. وعمامة مهلهلة.. ودينار.. أما ظلالها، فثقة معدومة، ونفاق متبادل، وعطش دائم!..

امرأة مذبوحة، وجهها مضرج بالدماء.. نهداها أحدهما منفصل عن الصدر والآخر مشطور إلى اثنين.. وبجانب المرأة.. يقف شاب. يقهقه..

لتختمر الصورة في رأسي أياما أخرى.. فيجب أن تكون دستورا للأجيال العربية والإسلامية المقبلة.. وتاريخا للإنسان العربي كله، ورمزا لانفتاق وعيه.. ليكن ذلك.. ليكن ذلك..

نظر لطفي إلى الهاتف فتذكر المرأة.. ونظر إلى ساعته : كان العقرب الصغير في النقطة الثانية بعد رقم "3" أما العقرب الكبير فإنه على وشك الوصول إلى النقطة الأولى قبل رقم "9" وفجأة أحس بزلزال في صدره.. كان قلبه يهتز بشدة، ويكاد يقفز من بين ضلوعه، حين تصور أنه يفتح الباب ويستقبل امرأة.. امرأة لا يعرف حتى اسمها.. كيف سيحدثها؟ ماذا سيقول لها؟ كيف يتمكن من مجاملتها وملاطفتها.. وربط مودة بينهما؟ إن ذلك لم يسبق له..

ولا يعقل أن يحدثها عن الحب ويقول لها : إني احبك. آه لو تعلمين كم أنا أحبك!

ودون أن يصمم لطفي على إتيان شيء، تقدم إلى الباب وفتحه قليلا، وعاد إلى سريره.. وما أن استلقى حتى غاب يستعيد أحداثا هامة جرت له في أمسيته.

* * *

قرب "الكوليزي" وبجانبه على بعد خطوتين زنوبة، كان متوتر الأعصاب، خائر القوى... جمع أنفاسه وواصل كلامه الذي انقطع منذ لحظات :

- إذن هذا هو جزائي؟

- إن شئت أن تسميه كذلك؟

- إنه كذلك، فقد اعترفت لي قبل لحظات بأنني أحبك؟

- هل يكفي أن أعلم أو أعترف بأنك تحبني؟ ليس هذا كل شيء، قل لي ماذا تريد بالضبط، يا لطفي؟ فأنا أحس برأسي يكاد ينفجر. لقد فكرت أكثر مما ينبغي، قل لي في كلمتين ماذا تريد مني بالضبط؟

- أتريدين إعجازي بهذا السؤال؟ في إمكانك أن تجيبي عوضا عني.

- اسمع يا لطفي. أحذرك أن تلاحقني مرة أخرى أو تكلمني.

- لقد منحتني البارحة قبلة!

- حسبك ذلك!

- والخمسة أشهر التي عشتها من أجلك؟

- لم أطلب منك ذلك، أرجوك أن لا تجبرني على الإساءة إليك.

- وداعا يا زنوبة!

وما كاد لطفي يستدير حتى توقفت عربة فخمة عند قدميه بالضبط.. لم يتعرف على سائقتها التي كانت تبتسم وتفتح الباب مشيرة إليه بالركوب، إلا بمشقة.. وما أن استوى بجانبها حتى بادرها :

- إني مصروع.. فعلا مصروع.. أوصليني بسرعة إلى مسكني!

- أمي ترغب أن تراك، فقد مر شهران دون أن تزورنا، أنسيتنا؟

- ليس اليوم.. في المستقبل.. أوصليني الآن.. بالفعل إني مصروع.

ووصل، ولم يكد ينزع معطفه، ويلقي بالسيجارة التي كانت بين شفتيه حتى رن جرس الهاتف.

هم لطفي حين وصل إلى الهاتف أن يثب من السرير ويسارع لتناول السماعة، إلا أنه عوض عن ذلك بالنظر إلى ساعته، كان العقرب الصغير قد تدحرج قليلا من النقطة الثانية بعد الرقم "3" أما العقرب الكبير فإنه كاد يلامس الصغير..

ولما نظر إلى الباب ووجده مفتوحا، اعتدل وأغمض عينيه، ودون أن يقصد تنويم نفسه راح يقص:

- اهتدى أبونا الواعي، لطفي، من خلال الرسم إلى الحقيقة المرة.. ولما جاءته المرأة التي أرسلتها إليه أخته، عمل على تمتين العلاقة معها، ثم طبق فلسفته المشهورة.. فتعرف على كل معارف تلك المرأة.. ولم يعد يعيش لواحدة بعينها.. وصار كأنه بلا ذاكرة، ينسى في المساء من رآها في الصباح.. أعطى أبونا الـــواعي مفهوما جديدا للخمار.. مفهوم المسلم الواعي.. امرأة بلا رأس بلا وجـــه أو ملامح.. ومنذ ذلك الحين بث أبونا لطفي الواعي في أبناء جيله بلوحاته الخالدة.. وتوفرت السعادة بتوفر الطاقة..

وكف لطفي.. كف عن فهم ما يدور في رأسه.. فقد داهمه نوم عميق.. وساد السكون الغرفة، وخمدت كل حركة إلا حركة ساعته.. فالعقرب الكبير يتدحرج محدثا صوتا رتيبا، نحو الرقم "12" أما الصغير لأنه يكاد يلامس الرقم "6" في بطئه المعهود...

* * *

ويمكن أن يكون العقرب الكبير قد تجاوز النقطة الأولى بعد الرقم "12" حين أحس لطفي بيدين لطيفتين على عينيه، وبشفتين رقيقتين قد التصقتا بشفتيه، في شغف، ونهم.. وبأنفاس حارة تلفح وجهه.. ظن أنه يحلم، غير أنه لم يكن كذلك، لقد استيقظ. استيقظ تماما.. حاول أن يتخلص من اليدين اللتين تغمضان عينيه.. إلا أنه ليس يدري كيف طوق على عنق يغطيه شعر ناعم، وأطلق العنان لشفتيه تمتصان في جنون ؛

وبعد لحظة كانت أشبه ما تكون بإغفاءة، امتزجت تنهيدة انطلقت من صدره بأخرى انبعثت من الشفتين اللتين كانتا على شفتيه.. فتح لطفي عينيه، بينما ينتهي إلى سمعه صوت يعرفه جيدا :

- لطفي!.

- زنوبة!؟ إنني لا أصدق! كم الوقت الآن؟

- السادسة وعشر دقائق، لقد كدت أخرج، لو لم أهتد إلى هذه الطريقة التي أيقظتك بها.. كان بودي أن أدعك نائما. فأنا أعرف أنك تعب، أسعيد أنت يا لطفي؟

وقاطعها وهو يردد :

- أسعيد أنا!؟

ثم ضمها إلى صدره. وطبع قبلة طويلة جدا على شفيتها.. ثم دفعها بعنف وصرخ :

- كلا، كلا، لست سعيدا، ما الذي أتى بك؟ اخرجي حالا لقد قررت أن أمحو رأسك من كل اللوحات التي رسمتك فيها.. لن أرجع في قراري.

وابتعد عن السرير بخطوات متعثرة، ثم أردف همسا بينما كانت زنوبة ذاهلة لا تصدق ما ترى وتسمع :

- لوحة تمثل موقف المسلم الواعي من المرأة.. خطوطها مسبحة مهشمة وعمامة مهلهلة، ودينار، أما ظلالها فثقة معدومة، ونفاق متبادل وعطش دائم... امرأة مذبوحة وجهها مضرج بالدماء، نهداها أحدهما منفصل عن الصدر أما الآخر فمشطور إلى اثنين.. وبجانب المرأة يقف شاب، يقهقه..

ثم توجه إلى زنوبة وصرخ :

- زنوبة، أخرجي أو غطي عني وجهك.. و..

اقتربت منه تنظر إليه في إشفاق، ثم قادته في حنان إلى السرير وراحت تمسح على رأسه، ووجهه، بحنو، وتهمس في أذنه :

- لطفي! إنك مريض، أخشى أن أكون السبب.. لطفي، أنا زنوبة التي تحبها.. أتحبني حقا يا لطفي؟

أحس لطفي بأعصابه تهدأ فأجابها بصوت خافت :

- لكن قولي، مالذي أتى بك. لقد قلت اليوم أن كل شيء انتهى...

- لن أقول كلمة حتى تجيبني عن سؤالي أولا.. أكنت وحدك حين كلمتك في الهاتف..؟ أتتذكر أنك قلت: ليس لدي متسع وقت للمزاح.

- لقد فهمت، فهمت، لا حاجة إلى جوابك الآن، إذن فقد أتت بك الغيرة.. شعرت بالخطر فأتيت...

- لا تقل ذلك يا لطفي، تظلمني، لم لا تقول أتت بي الثقة، كنت أجزم في قلبي أنك تحبني، لكن رأسي يأبى أن يصدق ذلك.. إن كثيرا من الرجال، يعاملونني مثلك، لكن اليوم لما رأيتك تركب إلى جانبها في السيارة تبينت لي نزاهة حبك، وتجرده، أليس كذلك ؟

- أنت مخطئة، قولي، هل تنزعجين حين تقفين على حقيقة ما؟

- لست أدري...

– التي رأيتني بجانبها ليست سوى أختي، أما العربة فللسفارة التي تعمل بها!

ارتفعت قهقهة لطفي وكذلك زنوبة ثم ساد صمت، كان لطفي غارقا، يتأمل عيني زنوبة الخضراوين، أما هي فقد كانت شفتاها تضطربان بشدة.. مرت لحظة صمت لذيذ، قطعه لطفي بقوله :

- زنوبة! لكي نتمكن من فعل الحب، يجب أن نتزوج.. أتوافقين على الزواج مني، إذ ذاك، سيكون الضمان، وتتوفر الثقة، وينعدم النفاق ويزول العطش.

- إنك تحبني يا لطفي...

- بل أريد أن أحبك.

- دع الأمور تسير بطبيعتها.. لا تتسرع...

- تعالي إلى الغرفة المجاورة لتري آخر لوحة رسمتها لك،

وأمسكا بيدي بعضهما، وتدلفا إلى الغرفة، حيث مد لطفي يده إلى الجدار وضغط على زر به، فانبعث النور قويا كالحب.

دخان من قلبي

أي رسام بارع يستطيع بريشته أن يصلح من خطوط الواقع.. أو أن يضيف إليه ألوانا تغير من نظره.؟

وأي بحور من الأحلام والخيال لا شواطئ لها.. حتى لا ترسو سفننا في ميناء الواقع.؟.

-أنا مغلل تحيط بي قضبان الواقع

مسكين أنا..!

هيمان متشبث بخيوط الأوهام والغيب..

أتغنى بأناشيد الحرية والانطلاق..

ولا حرية ولا انطلاق.. مادمت مرتبطا بالواقع.. دون أن أجزم أنه الواقع..!

وماذا جعله واقعا؟

هل يمكن أن لا يكون هذا هو الواقع؟ لست أدري.. إن كل شيء أوهـام.!. أو هكذا يبدو لي.

* * *

طوى دفتر مذكراته.. ومسكه بكلتا يديه.. ودمعتان غريبتان.. تدبان في خديه دبيب تائه في بيداء قاحلة.. لا يستطيع الاستسلام إلى الموت... ولا

مواصلة دبيبه.. ثم أشعل سيجارة وحاول أن يستمر في الكتابة بعد أن فتح الدفتر من جديد.. لكن ريق قلمه جف فأبى المسير.. ووقف كالمشدوه يتأمل الحروف التي خطها.. وكأنها غريبة عنه.. لم يرها ولم يمر عليها بعد.. فناجاه بهذه الكلمات : "تحرك يا قلمي ولا تسكن.. فإن الدماء التي تنزف منك لا تنضب لأنها دمائي أنا ومن كبدي أنا" وبدون جدوى.. يناجيه.. فالواقع فرض عليه ألا يسير.. وألا يتحرك.. فراح يعيد قراءة ما كتبه بعد أن قلب عدة أوراق إلى الوراء :

***

- حام حولي ورفرف طائر الحب.. فاستمعت إلى نشيده الساحر.. دون أية مقاومة مني أو نفور- ..بل - لقد فرحت بمقدمه.. وتغنيت معه وشدوت...

غاب عني الطائر، وانقطعت ألحانه عن أذني.. لكن بقيت تنبعث من قلبي.. هي بريئة وأنا بريء...

لكن سواد عينيها...

لولاه لما اندفعت أتتبع خطاها كل يوم من المكتب... إلى النهج الذي تقطنه.. من بعيد لكي لا تراني.. أو تشعر بوجودي... وعن كثب لئلا تنفر...

كانت هي تنهمك في الحديث مع زميلاتها.. وكنت أنا أنهمك.. في عبادة سواد عينيها...

ومرت أيام وأنا كذلك أسبح في السعادة إلى أن أحسست بصراع في نفسي.. وتضاءلت أمام ضميري.. شعرت بالنقص إلى حد أخجلني من نفسي.

لقد بدأ رسم الواقع وترا أي.. يتجسم من خلال السعادة وإذا بي أشتم رائحة الشقاء.. فانطويت.. في بيتي أخنق ألحان الطائر الغائب المتواري.. لكن عبثا أحاول، فقد تبينت أنها ممزوجة بألحان جديدة لم أفهم منها إلا :

الحب بحر لن تعبره إلا سفينة الواقع..!

فكان علي أن أحطم سفينة الخيال والأوهام.. وأن امتطي سفينة الواقع! وإلا حطمتني الأمواج وبددتني، فلم أعد أفكر في تتبعها.. بل في خطة أجدر...

إن صديقي "الحبيب" المصور، وزميلي في المسكن.. أبرع ربان يستطيع أن يقود بي سفينة الواقع.. لأنه لا يضيع صغيرة ولا كبيرة من بنات تونس.. إلا أحصاها.. فلماذا لا أستنجد به.. وأنا المهدد.. صحت وارتميت عليه..

- إنها هي.. أجل هي.. يا أخي الحبيب، إذن أنت تعرفها؟ ما اسمها..؟

نظر إلي الحبيب.. وأنا أحتضن صورتها بعد أن وجدتها بين الصور التي في حقيبته.. ثم قال في برودة أضجرتني :

- هل كلمتها؟. هل اقتربت منها؟

فأجبته وعيناي عالقتان بعينيها في الصورة :

- لا! لا! إن القصة لا تتجاوز ما ذكرت لك إلا بأني لا أستطيع.. التخلص من هذا الشعور.. الجارف.. إني سأغرق في الموج يا...

قاطعني والحيرة تبدو عليه :

- أنت يا فاتح ؟ لقد عهدتك..!

- ذلك هو السر.. أنا نفسي لا أدري.. الخلاصة إني غريق أستغيث وأستنجد.. بربك ما اسمها؟

- زهيدة..

- زهيدة!. زهيدة!. سأسميها "زي" وكفاني اسما.. فإني أخشى.. أن أقول "زاهدة" - لا قدر الله-. من الآن فصاعدا سيكون اسمها زي..

- اسمع يا فاتح.. أكتب لها رسالة.. صب فيها كل فنك.. ثم...

- آه.. الفن لقد أحسست به يتوارى عني.. لأنه يتصادم مع الواقع، لم أعد فنانا منذ أخذت في تحطيم الخيال والأوهام.. إن الفن مجرد أوهام لسد فراغ يحس به الإنسان..

- فاتح دعني أتمم حديثي.. ألم أقل إنك فنان.. دون أن تدري.. أذكر لها مهنتك، واطلب منها أن تعطيك بعض كتاباتها...

أنهى حبيب كلامه قائلا :

يجب أن يصلها جوابك غدا.. ثم أعطاني عنوانها وخرج.

شعرت بالأمواج تتلاشى أمامي، وسفينة الواقع تتهادى بي.. ونسيم الراحة والاطمئنان، يداعب قلبي.. بعد أن ألقيت بالجواب في صندوق البريد، وكأنما ألقيت بروحي في هيكل معبد.

لقد أحسست بالسفينة تقترب من الشاطئ.. وبالشاطئ يقترب من سفينتي... وبنفسي نشيطا أبحث عن عمل أسد به فراغ وقتي.. وصرت لا أومن بالأوهام. وأهزأ بماضي.. وبمن يتشبث بالأوهام.. ومتعطشا إلى لمس شيء.. بيدي.. لا بلا وعي.. ولا شعوري...

زارني النوم ليلتها واستسلمت له.. كما كنت أستسلم للهواجس والأحلام.. معللا ذلك بأنه الفن.. وبينما كنت نائما إذا بي أمام شيخ طاعن في السن، كثيف اللحية، يبدو عليه الوقار والجلال.. يسألني :

- هل تريد جناحين تطير بهما.. أم فأسا تحفر بها الأرض؟..

أجبته على الفور ومن غير فهم لما يقصد :

- إني لا أومن بغير الأرض.. لأني ألمسها وأسير عليها.. وإني مهما سبحت في الفضاء سأكل وأعود إلى الأرض..

قهقه الشيخ وطار في السماء قائلا :

- إنك محاط بأسلاك الواقع!..

استيقظت فزعا أتساءل :

ما هو الواقع؟ ومن صنعه؟ ولماذا يعوقنا عما نلمس؟ ويدفعنا إلى نتائج نقتطفها من الغيب.؟ يعوقنا عن وطء الأرض ويدفعنا لاحتضان الفضاء.. من يكون الشيخ؟ وماذا كان يفعل لو رجوته الأجنحة..؟

إن هذا إلا واقع مزيف...

وانتظرت صديقي كثيرا.. جدا.. حتى نفذ صبري.. لكن هل الواقع هو الذي يجعلني أنتظر.. أم هي الأوهام.. لقد اشتبها علي.. ولم أعد أفرق بينهما..

أنا أنتظر فقط...

الساعة الآن الثانية مساء.. وأنا مازلت متمسكا بالصبر كلا.. بالعجز.. إني تشككت أيضا حتى في الصبر.. فلو كنت قادرا على العثور على صديقي لذهبت إليه.. لكن سأتوهم الصبر.. أو سيحتم علي الواقع الصبر.. مثل الآلاف المعذبين.. يعضهم الطوى.. والظلم.. وهم يستمعون إلى وعاظ ملأى بطونهم يشرحون لهم مزايا الصبر.. لكي يصبروا على ما لديهم.

* * *

مدت زهيدة.. كلا "زي" يدها إلى حقيبة الحبيب لتنظر في الصور -كعادتها - كلما زارهم.. فأبدى حرصه على الانصراف.. لأن لديه أشغالا كثيرة.. ومواعيد مرتبط بها.. لكنها ألحت وألحت.. فما عليه إلا أن يمتثل.. لفتت انتباهها صورة.. فسألته كعادتها:

- من هو يا حبيب؟ يبدو أنه ممثل أو مطرب؟

ودون أن يرفع بصره أجاب :

- كلا إنه شاعر.

- من هو؟ إنه صغير؟

فأجابها وكأنما أعار أهمية أكثر للموضوع :

- لكنه فنان يا زهيدة.. إنه شاعر رقيق.. من أعز أصدقائي.

- قل لي ما اسمه؟

- أخشى عليه منك.. أو بالعكس!

ابتسمت "زي" قائلة :

- دائما تمزح يا حبيب!؟

- إنه صديقي فاتح ...

بذلت "زي" كل ما في وسعها لتخفي دهشتها.. ثم أعادت الصور كلها إلى الحقيبة إلا صورتي أنا.. لقد أخفتها عني -كما قال الحبيب - ثم ودعته.

* * *

السفينة تقترب من الشاطئ أكثر فأكثر.. صورتي الآن عندها وصورتها عندي.. أهذا واقع أم وهم؟ أبهذه السرعة؟

إن السعادة تداعبني وأداعبها.. لقد كنت أجتنب أن تراني، ثم أصبحت أسعى إلى لقاءها، ما أكثر وجوه الواقع.. أنا لا أومن بهذا الواقع المتناقض أبدا، لكن الألحان تنبعث من قلبي :

الحب بحر لن تعبره إلا سفينة الواقع، ألحان تبعث في نفسي العزيمة، والتضحية، والإيمان، لكنها تجعلني في صراع.. أبحث عن حقيقة الواقع.. وعن أصوله. فلا أجد إلا الغموض والإبهام.. لا يمكن أن تستقر عليهما الإنسانية.. لأن مصير الغموض والإبهام.. الانجلاء والاتضاح..

ولكن كيف هو واقع إذن؟ وهل أطلق عليه هذا الإسم متمردون على الإنسانية.. بطلاسم؟

لم تسرق "زي" صورتي إلا لأنها!؟ سأقترب يوميا من عينيها الساحرتين.. وأناجيها : زي.. يا زي!

* * *

كنت أسير على الأرض، لكن لا أشعر أني أطؤها بقدمي، حينما كنت ذاهبا إلى زهيدة.. لا، لا، إلى زي.. بعد أن كررت قراءة رسالتها مرات.. لقد كنت آنذاك قطعة من السعادة التي طالما شغلت بالبحث عنها.. فزي التي كنت أختفي عنها تحت الجدران حتى لا تراني.. سألتقي بها بعد قليل وفي المقهى أمام كل الناس.. شيء لا يكاد العقل يصدقه.. لكن يثبته الواقع...

آه ما أطول المسافة! حتى يخيل لي أني لا أصل "باب البحر" إلا بعد يومين أو ثلاثة.. ليتني ارتضيت الأجنحة التي أراد أن يسلمها لي رسول المنام.. ليتني

لم اقل له إني لا أومن بشيء عدا الأرض، فأكون الآن أحتضن الفضاء وأشقه نحوها عوض أن أسير على الأرض ولا أشعر بلمسها..

آه !..

لست أدري كيف وصلت؟ إن الواقع يفعل كل شيء.. سواء آمنت به أم تشككت.. فها أنا الآن أنتظرها، ولقد حان موعدنا.. ستأتي إلي حالما تحل.. لأن صورتي معها، أما أنا فسواد عينيها لن أنساه أبد الدهر.. ولن يضيع مني ولو تدمج في الفردوس مع حور العين...

ما أسعدني !

حتى أنني أشعر بأني أقوى على إسعاد كل البشرية.. لأني قطعة من السعادة مبعثرة في مقهى..

* * *

دخلت زي تنظر حولها.. تبحث عني، وكنت في زاوية اخترتها لبعدها عن الأعين.. فلم استطع أن أشير لها بيدي.. الحق أني عاجز.. أو خائف...

إنها تدير عينيها الدعواجين حول المقاعد.. دعها حتى تراني.

تذكرت أن صورتي التي معها مر عام منذ "تصورتها"، وخشيت ألا تعرفني...

يا الله!

إنها رأتني، لكن لم تطل النظر في.. شيء عجاب.. كان علي أن أفعل شيئا، فقد طال وقوفها. التقطت أذناي اللحن المنبعث من قلبي.. "الحب بحر لن تعبره إلا سفينة الواقع".. فاسترجعت عزيمتي وتمالكت.. ورفعت يدي مشيرا إليها بإصبعين...

أثمن شيء تحصلت عليه في حياتي: بسمة زي عندما غمرتني نظرتها.

ما أجملها.. وما أسعدني.. وما أشد غموض واقعنا!.

أقبلت نحوي "زي" وأقبلت معها حياتي تتهادى كالأمل، حياتي المثلى التي ضيعت عمري في انتظارها.. وفي الحبو نحوها. فنهضت مادا يدي لأصافحها وأصافح الشاب الذي معها، وشعرت وهي تقدمه لي قائلة :

- رؤوف ابن خالتي وخطيبي..

شعرت بالألحان التي كانت تنسكب من قلبي.. تحولت إلى دخان.. وبقلبي العازف يشوي في زمهرير..

ولم أفقه ما تقوله وهي تقدم لي مواضيع راجية أن انشرها في المجلة التي أحرر فيها.

القبعة الجليدية

- إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر..!

ما أن اقترب مني وهمس في أذني بهذه الكلمات، حتى شعرت بيد قوية تدفعني إلى الأمام.. وبصوت كأنه لهاتف من السماء يأمرني بالابتعاد عنه، فرحت أحث الخطى وأتدافع في سيري، حتى تيقنت بأن أمتارا عديدة تفصل بيني وبينه.. وصار وقع قدميه ينتهي إلى سمعي، وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة...

أخذ الفزع الذي استولى علي، والغضب الذي تملكني إثره.. يبتعدان رويدا رويدا عني، فتنفست الصعداء، وعاد إلي هدوئي.. غير أني لست أدري ما إذا كانت قدماي لا تزالان تحثان الخطى.. أم لا؟ فقد غمرتني موجة من الأفكار أنستني كل شيء.. حتى تلك الخطى التي ينتهي وقعها إلى أذني، وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة.. ورحت أتساءل:

- إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر؟؟؟ لماذا؟.. هل أنا في حاجة إليه؟ هو بالذات؟ أو إلى غيره؟ حقا إنني أحن حنينا ينمو شيئا فشيئا، إلى الرجل.. إلى مخلوق يخالفني في كل شيء.. ولكني لم أكن أشعر بأنني في حاجة إليه، ولم أسمع أبدا من أمي أو من أبي مثل هذا الكلام ولم أفكر حتى في العلاقة التي تربط بينهما.

كان ذلك بالنسبة لي من الأمور التي لا تقبل النقاش والجدال، بل وحتى الاهتمام.. تماما مثل ارتباطي أنا بأبي وأمي..

"إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر" هل يقصد بذلك، أنا وهو..؟ أم يقصد كل هذه المخلوقات..؟ أأنا في حاجة إليه!؟؟ لا. غير معقول.. بل معقول. لا، نعم، معقول.. غير معقول.. غير معقول مائة ألف مرة ومرة.

أأنا لست في حاجة إلا إلى أبي وأمي.. وحتى على فرض أنني في حاجة إلى آخر، فطيش، وتطاول واعتداء على الغير.. ما صدر منه.. أبدا ليس من حقه ومن حق أي شاب أن يكلم فتاة لا يعرفها.. وفي الشارع على مرأى من الناس وربهم.. لو يسمع أبي أن أحدا كلمني وسكت عنه بهذه الصفة لـ... ولو علمت أمي لما تركتني أخرج مرة أخرى منفردة...

كان علي أن أوقف هذا الطائش عند حده منذ اليوم الذي بدأ يطاردني فيه.. إن المسؤولية تقع علي، وعلي أنا وحدي التي شجعته... إنني لم أكن مبالية به... بل، بالعكس، كنت أوليه اهتماما كبيرا.. وأجد لذة في وقع خطاه وهو ينتهي إلى سمعي من بعيد وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة.. أو على مقربة مني وكأنه صواعق تنزل بقلبي...

إنني مسؤولة أمام أمي وأبي..

- "إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر.."

ألم يجد كلمة أخرى يقولها عوض هذه..؟ ما الذي يعني..؟ وهل يعي ما يعني..؟ لقد قالها بلهجة تنم عن صدق صاحبها.. ومزيج من الاستعطاف والأمر. بل إنها للهجة غريق يخاطب غريقا..؟ إنه يستحق العطف والعون..

لكن... مالذي يريد؟. أبدا لا يريد شيئا.. وإن هذا إلا طيش، وتطاول واعتداء على بنات الناس... وليس هناك أي قانـون يمنحـه حـق مخاطبـة أو الاقتراب من فتاة لا يعرفها.. ماذا سيقول الناس لو يرونه؟. لا شك أنهم سيرمونه بالطيش وقلة الأخلاق، ويرمونني أنا بالفجور.. ويلعنون من ربوني...

لا، لا يستحق العطف والعون، وحتى مجرد الاحترام.. إنه لم يحترم نفسه.

لكن لهجته..؟ إنها صادرة من أعماقه.

أبدا ليس من حقي أن أدع مثل هاته الأفكار تتسرب إلي.. إنها وسوسة. وغير معقول...

- "إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر!!!"

نفس المعنى الذي تعبر عنه زميلاتي في القسم وهن يتحدثن عن الرجل.. وكل واحدة تسرد أوصاف الشبح الذي يسير خلفها كلما خرجت من المدرسة أو من دارها.. بل إنه نفس المعنى الذي أشعر به حينما يكون وقع خطواته ينتهي إلى سمعي من بعيد وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة. أو على مقربة مني وكأنه صواعق تنزل بقلبي...

الحق أنني لم أكن أتصور أنني سأجابه ذات يوم وعلى حين غرة مشكلا من هذا النوع.. رغم حنيني إلى مخلوق غريب يخالفني في كل شيء...

لكن أبي وأمي.. والناس...

غير معقول أبدا.. بل معقول.. لا، غير معقول.. معقول جدا.. غير معـ...

* * *

- لا داعي للنفور والجزع.. إنني مجرد مخلوق مثلك.. انظري حولك إلى الشباب الأوروبي! ما الذي يخيفك.. إنني أشعر نحوك بـ.. لقد آن افتراقنا".

انتفضت حتى كادت محفظتي تسقط من يدي، حين غافلني "الخبيث" والتصق بجنبي مرة أخرى، وهمس في أذني.. بلهجة تنم على صدق صاحبها ومزيج من الأمر والاستعطاف.. جعلتني أوشك أن التفت إليه، وأسأله عما يريد، لو لم أشعر بيد قوية تدفعني بعنف إلى الأمام.. وبصوت كأنه لهاتف من السماء يأمرني بالابتعاد عنه، فرحت أحث الخطى وأتدافع في سيري حتى تيقنت بأن أمتارا عديدة تفصل بيني وبينه.. وصار وقع قدميه ينتهي إلى سمعي، وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة، إلى أن تلاشى وأنا أقترب من المنزل.. كما يتلاشى صوت الغريق حين يداهمه الموج فيطويه في جوفه طيا.

وشعرت وأنا أدفع الباب... بمرارة.. وبأسى.. بل لقد كنت في تلك اللحظة أردد :

- إنني مذنبة.. مذنبة تستحق العقاب والانتقام...

ولم أبال بأمي وهي تكلمني وسارعت إلى السرير وانفجرت بالبكاء قبل أن أبلغه وأخفي فيه نفسي.

لقد بكيت بصوتي كالطفلة الصغيرة.. لا أعرف لماذا أبكي؟ وعلام؟.. كان كل ما أفكر فيه هو الذنب.. بالرغم من أنني لم أحكم بالخطأ أو بالصواب على موقفي إزاءه بعد.

مرت ثلاثة أشهر، قضيناها على شاطئ البحر، أدركت خلالها أشياء كثيرة.

أدركت معنى كلمات الشاب الأسمر.. الذي لاحقني مدة أسبوع بوقع خطواته الذي ينتهي إلى سمعي من بعيد وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة.. أو على مقربة مني، وكأنه صواعق تنزل بقلبي.. أدركت.. بل عشت معنى كلماته التي همس بها في أذني آخر يوم :

- إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر.. لا داعي للنفور والجزع.. إنني مجرد مخلوق مثلك.. انظري حولك إلى الشباب الأوروبي... ما الذي يخيفك إنني أشعر نحوك بـ.. لقد آن افتراقنا...

أدركت أن حاجتي إلى أبي وأمي محدودة نسبية إلى حد ما وأنني فرد قائم بذاته، مستقل استقلالا كليا.. عن أبيه وعن أمه.. عالمه غير عالمهما.. رغباته ومطامحه وآماله.. وأحلامه.. ومشاعره، بعيدة كل البعد عن الرابطة التي تربط بيننا... وأدركت أكثر من ذلك : أن على رأسي قبعة جليدية نسجتها أمي بأفكارها وآرائها، وأوامرها.. بمساعدة نظرات أبي الخنجرية... وكلماته الغامضة الصلبة...

حاولت أن أتخلص من تلك القبعة الجليدية التي جعلتني أشعر بالكراهية نحو نفسي، ونحو أبي وأمي.. كان الشاب الأسمر.. يتمثل لي يوميا في آلاف الشبان كان كل واحد في الشاطئ يبدو لي أنه يقول.. لو وجد الفرصة، بلهجة تنم عن صدق صاحبها.. ومزيج من الاستعطاف والأمر :

- إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر، لا داعي للنفور والجزع.. إنني مجرد مخلوق مثلك.. انظري حولك إلى الشباب الأوروبي.. ما الذي يخيفك؟ إنني أشعر نحوك بـ... لقد آن افتراقنا..

وكنت أرى في كل فتاة تعترضني.. أنا بقلبي، بكياني بإحساساتي، بقبعتي الجليدية.. بضميري الذي يصرخ في باستمرار وبسخرية قائلة :

- مذنبة. يا مذنبة.

حاولت أن أتخلص من القبعة الجليدية التي جعلتني أشعر بالكراهية نحو نفسي ونحو أبي وأمي.. لكن أمي كانت تلازمني طيلة الثلاثة أشهر.. كأنها ظلي.. بل كأنها هي القبعة الجليدية التي على رأسي، السارية برودتها في كل حياتي وما حولي..

رباه...

* * *

- لا شك أنك قضيت صائفة ممتعة... أما أنا...

ولم انتظر حتى يتمم كلامه... لم تكن لي إرادة في ذلك... لقد انتفضت مذعورة وشعرت بيد قوية تدفعني بعنف إلى الأمام، وبصوت كأنه لهاتف من السماء يأمرني بالابتعاد عنه، فرحت أحث الخطى وأتدافع في سيري حتى تيقنت بأن أمتارا عديدة تفصل بيني وبينه.. وصار وقع قدميه ينتهي إلى سمعي، وكأنه أصوات حصى تلقى في بئر عميقة...

ورغم أنني منذ أخذ شهر أكتوبر يدنو لم أفتأ أتساءل عما إذا كان الشاب الأسمر سيعود يلاحقني بخطاه.. وعما إذا كان لا يزال على قيد الحياة، أو لم يخرج من المدينة... ورغم أنه لم يفارق ذهني لحظة منذ دخلت القسم هذا الصباح.. ورغم شعوري بحاجتي إليه.. فقد كنت أكيل له في قلبي اللعنات.. والشتم.. وقح.. طائش، يضايق بنات الناس.. ويتطاول عليهن.. لعنه الله من قليل تربية... سأنادي له البوليس... لو يراه أبي. لو تعلم أمي.. ألا يفكر فيما سيقوله الناس..؟ أنا المسؤولة عن كل شيء.. كان علي أن أوقفه عند حده منذ اليوم الأول.. إنه يستحق صفعة حارة...

* * *

- إن كل واحد منا في حاجة إلى الأخر، لا داعي..

وثبت مذعورة إلى الأمام.. ولشد ما كانت دهشتي، حين وجدت نفسي أسير في اتجاه معاكس لطريقي.. كنت في باب البحر بينما أقطن في باب المنارة، لقد قطعت المسافة من نهج "الباشا" إلى باب البحر دون أن أدري.. بل لعلني كنت قررت ذلك في القسم.. أجل لقد قررت ذلك من أجله...

يا الله.. إنني كنت نائمة.. لم أكن أنا التي أفكر.. إنها القبعة الجليدية.. إن أمي هي التي كانت على رأسي.. يجب أن أنزعها بسرعة.. علي أن ألقي بالقبعة الجليدية، بأمي، حالا واضرب بها عرض الحائط لتتحطم.. وتتبعثر.. إنها باردة تبعث البرودة في حياتي، وفيما حولي، لقد أحسن الاختيار حين ذكرني بالكلمات التي تعذبت لمعانيها طويلا.. لا شك أن المسكين.. تعذب مثلي لها، وقاسى.

لكن كيف أنزع يا ترى هذه القبعة الأليمة.. عن دقات قلبي تتضاعف.. وركبتي ترتجفان فأكاد اسقط، آه.. أحس برأسي يشتد ثقلا على كتفي.. وبالمحفظة تكاد تسقط من يدي.. عليه أن يبتعد عني.. لقد داهمتني حمى.. أريد أن أستلقي.. أن أخفي رأسي.. أن أفر من الواقع...

أمي، القبعة الجليدية هي محطمتي!؟؟

- إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر.. لا أقول إن كل واحد منا يجب أن يحب الأخر... فالحب بكل مرارة وأسف ليس في مستوى مجتمعنا نحن، لعل ذلك يحدث بعد أجيال في مجتمع إسلامي مرت عليه معصرة.. وأخرجت منه الإنسان الحر.. الإنسان الحق.. لا المسخ.. الإنسان الذي لا يخاف بعضه.

إن لكل واحد منا فراغا عميقا.. أفسد عليه راحته وهناءه.. وعاقه عن السير السوي في هذه الحياة.. نحن في عصر الحياة الخاطفة.. السريعة.. حيث غيرنا يسطر برامج لسكن الفضاء.. ولكن المفروض.. أن نضيع، نضيع بفراغنا وفي فراغنا.. لا تخافي يا آنسة.. إنني بشر مثلك.. كلميني ناقشيني أفكاري.. فليست لدي أغلال أضعها في عنقك.. إنك ستبقين على حالك، مادام لكل منا الحرية التي للإنسان.

* * *

لم اشعر هذه المرة بيد قوية تدفعني بعنف إلى الأمام.. وبصوت كأنه لهاتف من السماء يأمرني بالابتعاد عنه.

كنت في حمى.. وكانت نبرات صوته تطغى على إحساساتي ومشاعري كلها...

انتفضت كالعصفور حين امتدت يداه.. واحدة إلى يدي تمسكها وتضغط عليها.. والأخرى إلى المحفظة، تريحني من ثقلها...

والعجيب أنني سرعان ما انطلقت أتحدث إليه ببساطة.. كأنما لم تكن على رأسي قبعة جليدية، وكأنما لم تكن لي أم تربعت فوق عرش فكري زمنا طويلا.



ممر الأيام

ابتسامة واحدة فقط.. كانت كفيلة بأن تجعل كل الأحكام التي أصدرها على الأيام، وعلى الحياة عرضة للخطر. ولئن كان لم يراجعها، ويتثبت منها، فإن احمرار وجهه في اليومين الأخيرين، وحركاته النشيطة، الكثيرة، ودخوله، وخروجه، إلى غرفته على غير عادة.. واعتناءه بالنافذتين، ينفض عنهما غبار الأيام بين الفينة والأخرى، بل وحتى عناوين المسرحيات التي تتراقص في ذهنه باستمرار.. كل ذلك يشعر من يعرف "عبد الستار" بالتبدل العميق الذي طرأ عليه، وبأن فلسفته التي يقول عنها إنها فلسفة كل شاب عربي، في خطر، إن لم يجزم بأنها انهارت بالفعل، ويأسف لذلك إن كان ممن يقرون بصحتها ويقاسمونه إياها.

* * *

انفصل عبد الستار عن عائلته لخلاف، جوهري، عميق، بينه وبين زوج أبيه، واكترى غرفة، تقع في أقصى حي من المدينة، ذات مدخل فسيح يشبه غرفة ثانوية، أو قاعة يحتج به عبد الستار حين يسمي غرفته بالدار: فيعارضه أحد.. وذات نافذتين إحداهما في المدخل والأخرى في الغرفة التي سار في تأثيثها على منوال تلامذة الآفاق الزيتونيين، الذين يقطنون "المدارس" أو "الوكالات.."

سرير خشبي بنصف دينارا. وفراش بسيط، وحقيبته التي خرج بها من دار أبيه، ومنضدة حديدية مستديرة ومقعد، أنسى فيهما صاحب المقهى الذي استعارهما منه.

ومنذ القطيعة بين عبد الستار ودار أبيه أنهى مشكل التعليم فانقطع عنه غير آسف على شهادة التحصيل التي لم يبق إلا شهران عن موعد الامتحان فيها وانشغل بكتابة المسرحيات الإذاعية، يتقاضى منها إن صادف وأذيعت باسمه مبلغا لا بأس به، يكفي لشراء قوارير "الروزي" على عدد أيام الأسبوع ويكفي لتسديد ما ترتب في ذمته من دين لدى "العطار" ليستأنف تناول السجائر، ومقتضيات طهي طعامه الخفيف، على الحساب.

وليس من المستبعد أن يكون عبد الستار قد حاول المرات العديدة أن يربط علاقة بإحدى الفتيات، قبل أن يغلق ذلك الباب إغلاقا مبرما.. ويصبح من الذين يسميهم "بالمتخلفين غراميا".. يستاء ويثور إذا ما ذكرت أمامه لفظة الشباب، أو الحيوية، أو الحب، ويعيد على أصدقائه الذين يجتمعون عنده ليلة في كل أسبوع رأيه المعروف: لا شباب في العالم العربي. وليس للعربي من أطوار سوى طور الطفولة الذي لا مسؤولية فيه، وطور الكهولة والشيخوخة حيث المسؤولية، وتبعات الحياة والبقاء، وانتظار النهاية التي ليس منها بد.. وينفعل في كل مرة إلى أن ينتهي به الأمر بجرح عواطفهم فيتهمهم بالكذب على أنفسهم، وبالزيف، وأنهم بأوهامهم يضيفون إلى ركود المجتمع ركودا، وإلى تأخره تأخرا وانحطاطا. وكثيرا ما يؤول الأمر إلى مغادرة البعض الجلسة خاصة حين يطلب منهم أن يثبتوا له من منهم عاش يوما لا يشبه بقية أيامه الماضية؟.. ومن منهم ليس في انتظار يوم ما.. يوم يكون نهاية للأيام الطويلة التي تمر وكأنها جدران لمر ضيق نتن قذر لا مفر للمرء منه يسير فيه

حتما إلى حيث لا يدري.. يوم يكون ثغرة يفلت منها المرء إلى العالم الذي يسمع ويقرأ عنه، ويحلم به في يقظته ونومه..؟

ومرت سنوات على هذه الوتيرة.. لم يتغير فيها شيء بالنسبة لعبد الستار.. اليوم كالأمس.. والغد كاليوم وكالأمس.. الأيام جدران كثيفة تحصر ممرا ضيقا نتنا قذرا.. لا نهاية له.. الإنسان العربي لا يعرف طور الشباب...

ولو أن دخله ارتفع إلى مستوى يمكنه من تناول الطعام في المطاعم ومن تدخين سقائر أرقى من "الحلوزي" و"الارتي" ومن اشتراء قطعة جديدة من الثياب لائقة في كل شهرين تقريبا.

لكن هذه الأيام...

* * *

ابتسامة واحدة فقط.. كانت كفيلة بأن تجعل كل الأحكام التي أصدرها على الأيام.. والحياة في خطر.. فقد استيقظ ذات يوم كالعادة متأخرا، وأبعد عن فراشه قارورة الخمر.. وأوراق الفصل الثالث من مسرحية "الثلوج المتراكمة" التي يكتبها.. والقلم والشمعة التي تركها، مشتعلة حتى أتت على نفسها... نظر إلى ساعته يتعرف الوقت فوجدها قد توقفت في الساعة الواحدة.. وبعد جهد حمل نفسه على النهوض، ففتح النافذة آملا أن يمر أحد يسأله عن الوقت، فإن لم تمض الساعة الحادية عشرة، أسرع ليلتحق بالمسرح حيث تواعد مع مدير إحدى الجمعيات التمثيلية...

وربما هي المرة الأولى التي يرفع فيها رأسه إلى العلو المقابل.. حيث التقت عيناه بعينين غسقيتين، تبعثان القشعريرة في الجسد، ولم يصدق عينيه حين

انفرجت شفتان عذبتان رقيقتان، عن ابتسامة محتشمة، فأمد عنقه، وأدار رأسه ذات اليمين وذات الشمال.. فقد يكون هنالك أحد غيره ابتسمت له، ولكن لا، إنها تبتسم له، هو بالذات، أعاد النظر إليها مرة ثانية.. كانت لا تتجاوز، على أكثر تقدير، الثامنة عشر من عمرها، سمراء ربعة القد، دقيقة الخصر، ساحرة حقا، وفاتنة مثيرة.

حاول أن يرد التحية بأحسن منها، ولو أنه يجد في ذلك مشقة وعناء أكثر مما يجدهما حين يحمل نفسه على النهوض من مضجعه، لكنها داعبت شعرها بيدها اللطيفة، وولت إلى الخلف في رشاقة ودلال، ليظل بصره عالقا بالنافذة لحظات، شارد الذهن، مشتت الأفكار.

أين كانت؟ ترى هل هي تقطن هاهنا منذ زمن بعيد؟ وهل إنها كانت تطل عليه، متوسلة بعينيها الغسقيتين، وهو خارج، أو داخل، ليرفع رأسه؟ أين كانت طيلة هذه المدة..؟

أيكون اليأس المستولي عليه هو الذي جعله يترك ببساطة شبابه يفلت منه!.. أيكون هذا هو الداء العضال الذي جعل الإنسان العربي لا يعرف طور الشباب؟ كم هو قاتل اليأس!

مسكينة ! لا شك أنها تقضي أوقاتا طويلة في انتظاري. وأنها هي أيضا تتخبط في أمواج اليأس، إلا أنها لم تستسلم له بعد، كما يبدو! ولعل ذلك، لأنها لا شغل لها تصرف فيه طاقتها...

يا لي، من فاشل مستسلم، بل يا لنا، فالماء مبذول لشاربه ونحن نحتضر ظمأ...

* * *

دار كل هذا في رأسه قبل أن يترك النافذة.. دون أن ينتظرها.. ارتدى ثيابه بسرعة، وغسل أطرافه ومرق كالسهم، كله نشاط وأمل وحبور، وعلى غير عادته، ما أن تقابل مع مدير الجمعية التمثيلية بالمسرح، وأمضى العقد، وتسلم تسبقة على مسرحية قدمها له، حتى عاد إلى غرفته، وأشبعها تنظيفا وجيئة وذهابا، وحس بالهواء خانقا، فعجب من نفسه كيف كان يعيش في هذا الجو، ففتح النافذتين على مصراعيهما، وجلس وراء النافذة المشرفة على علو الجيران، وحمل القلم والفصل الثالث.. ينظر نظرة إلى الورقة أمامه وعشرا إلى النافذة.. علها تعود، ويحدث نفسه بين الفينة والأخرى بأنها عائدة لا شك.. إن لابتساماتها معنى صريحا، لو كنت من الخبراء في هذا الميدان، لاكتشفت أسرارا تخفيها..؟ ويقين أنها ستطل لأول فرصة تجدها، وأنها تفكر في أكثر مما أفكر فيها...

وشعر كأنما تيار كهربائي يسري في جسده، وبالمقعد تحته يهتز، حين التقت عيناهما، في لهفة وظمأ.. لم يعد إليه هدوءه إلا بعد عناء وجهد، فرفع يده إلى شفتيه يرسل لها قبلا.. وانطلق حين ردت عليه بأحسن من تحيته، فتلمست شفتيها ثم قبلها وأرسلت زفرة حارة تحرك لها نهداها المنتصبان على صدرها ينذران بالخطر.. وأشار لها بيده، ما إذا كان في إمكانها أن تقابله، فرفعت حاجبيها.. أن يا ليت.. وقال لها هل تستطيع أن تخرج معه؟ فأعادت بحاجبيها : يا ليت...

وفجأة التفتت وراءها، ثم أنذرته وتوارت...

* * *

لم يعر عبد الستار أدنى اهتمام، لما قالته عيناها : يا ليت يا ليت.. وانغمس في الحبور، والسرور، طالقا العنان لمخيلته، ترسم ما تشاء من الأماني والآمال، وتشيد

ما حلا لها من قصور السعادة والهناء والانطلاق : ستتبدل الحياة غير الحياة، وستتحول الأيام التي كانت تمر وكأنها صخور لجدارين يحصران ممرا ضيقا نتنا قذرا لا منتهى له.. سيصبح كل يوم عالما بذاته، زاخرا بالجديد، وطورا من أطوار الشباب لا ينتهي، وحاجزا قائما في وجه الكهولة والشيخوخة لا ممرا يفضي إليهما.. ولشدة ما نسي نفسه وفلسفته، راح يتساءل:

- يالله! ما الذي يمنع الإنسان العربي، من ممارسة شبابه؟؟ الماء مبذول لشاربه، ونحن نحتضر ظمأ لماذا؟

وبالرغم من أنه لم يتناول خمرا، ولم ينم أكثر من ست ساعات كل ليلة، فإن الأيام الثلاثة التي مرت.. لم يدر كيف مرت وكل يوم كأنه إغفاءة لذيذة، يحييها فتحييه، يرسل إليها قبلة، فتقذفه بعشر.. يعانقها من بعيد فتعانقه.. وسرعان ما عرف عنها الكثير.. اسمها "وردة"، يتيمة الأم مثله، أبوها يشغل منصب "كوميسار" والذي يهمه أن يعرفه عنها، هو أنها أحبته من زمن بعيد...

حتى كان اليوم الرابع...

* * *

أطلت عليه كئيبة، يبدو على عينيها خيط أسود.. جعله يدرك للوهلة الأولى أنهما لم تغمضا طيلة ليلة البارحة، وأن دموعا غزيرة انهمرت منهما...

وقبل أن يستفسرها عما بها.. ألقت برسالة تحت نافذته... فأسرع.. وبأصابع مرتجفة، تمسك للمرة الأولى رسالة كتبتها أنثى!... التقطها، وعاد إلى مكانه، يلتهم سطورها التهاما :

عزيزي عبد الستار، كم كنت أتوسل إلى الله ألا يجعل بداية حبنا نهاية لمأساة.. وأن يجعله يشذ عن حب الآخرين! وكم كنت أود لو أننا اتصلنا بعضنا قبل الآن، بل كم أعاتب نفسي وأحنق عليها، لأني لم ألفت نظرك قبل اليوم، وخانتني شجاعتي في ذلك والحق أنني كنت مستسلمة إلى الأيام تجرني في ممرها إلى النهاية التي ينتهي عندها...

عزيزي "عبد الستار"، البارحة، وقبل أن أنام، أستغفر الله، قبل أن آوي إلى مخدعي، قدمت لي زوج أبي صورة لشاب، قائلة : إن أباك يكون مسرورا، إذا ما وافقت عل الزواج منه... إنني لم أعطها الرد الحاسم، إذ إنني أثق سلفا أنه عند أبي.. الفظ.. هل لديك أنت من حل يا عزيزي؟.

وأحر قبلاتي في الختام، المتألمة : وردة

* * *

رفع رأسه إثر انتهائه من تلاوة الرسالة، فوجدها تنظر إليه وفي عينيها تتلألأ دمعتان، وبصوت متهدج، مختنق، ملؤه اليأس والقنوط قال لها :

- ليسر كلانا، في الممر، مادام ليس في وسعه، أن يفلت من قبضته، أجيبي أباك بالإيجاب، أما أنا فإنني سأرتحل عما قريب..

ثم أغلق النافذة.. وتناول قارورة الخمر، والفصل الثالث من مسرحية "الثلوج المتراكمة" واسترسل بعزيمة الدهر...

نوة

قضت نوة القيلولة، وجزءا من الأمسية، في نشاط دائب وحركة لا تعرف الفتور: نقلت الحجارة المتراكمة في زوايا الحوش إلى الخارج، واقتلعت ما نبت من أعشاب، وبقايا تبن أضحت على مر الأيام جزءا من الأرض، رتبت الغرفتين ونفضت ما تراكم عليهما من غبار شبيه بذلك الذي تراكم على أيامها ووجودها، والحق أنه لم يكن ليتأتى لها كل ذلك بهذه السرعة لولا مساعدة ابنيها الصغيرين عمار وإبراهيم الفعالة، فقد قاما بكل ما يقدران عليه، وكان الفضل الكبير في نقل الأوساخ يرجع إلى عمار.

وحين تم كل ذلك، وتنفست الصعداء وشعرت، براحة ضمير وبجذل، قل أن شعرت بهما منذ سنتين، وقفت وراء الباب وألقت شيئا من الحب في الباحة، بينما كان عمار وإبراهيم يجمعان الدجاج ويلوحان عليه بأيديهما اللطيفة لكي يدخل إلى الحوش، حتى إذا ما تقدم "القايد" رافعا رأسه إلى السماء مصعرا خده، يتيه عجبا، وتبعه "الخوجة" بخطوات حذرة، ونفس نافرة، ولحقهما "الشامبيط" في حركته الخفيفة، والتفاتاته السريعة العديدة، قالت نوة :

- أغلقا الباب، وأسرعا لإلقاء القبض على "القايد".

كان القائد هو الديك الأحمر الكبير والخوجة هو الديك الأبيض الهزيل، أما الشامبيط فإنه الديك الأزرق الصغير! وقد أطلقت عليها هذه الأسماء منذ نما

ريشها، وكانت الثورة إذ ذاك قد أولت عنايتها إلى القضاء على الخونة وأذناب الاستعمار، فلا يكاد يمر يوم دون أن يصبح قائد أو خوجة أو شامبيط مذبوحا أو مفقودا...

أغلق عمار الباب، وانهمك ثلاثتهم في محاصرة القائد ومطاردته من زاوية إلى أخرى، وثارت جلبة كبيرة، وضوضاء حادة، ولكن دون جدوى، فكلما حاصروا القائد تمكن من فك الحصار والإفلات، سواء بين رجلي إبراهيم الذي يغلبه الضحك أو بالوثوب فوق رأس عمار الذي يمسكه بيده ولكن لا يجد بعد ذلك إلا ريشة أو اثنتين بين أصابعه.

وبعد جهد ذهب سدى، تفطن عمار إلى حيلة دلت على ذكائه ومقدرته في إيجاد الحلول الناجعة، فأحضر برنسا قديما، غافل الديك الأحمر ثم غمه به قائلا :

- أين المفر أيها القائد؟ ها قد دقت ساعتك!

ثم حمله من جناحيه وخرج ليعود به بعد ربع ساعة، تقريبا، مذبوحا فألقته أمه في ماء يغلي بثانية قصديرية، وبسرعة وحماسة انهمكت في تجريده من ريشه الأحمر القاني، برنسه الذي طالما افتخر به، ولقب من أجله قائدا، وبين الفينة والأخرى ترمق إبراهيم بنظرة تختفي وراءها أسرار ومعان، وكان هو لا يعيرها اهتمام، فقد انهمك بدوره في اللعب بأصداف الحلزون يرصفها في صفين، ثم يقول بينه وبين نفسه :

- هؤلاء هم المجاهدون، إنهم كبار أقوياء أشداء، أما هؤلاء الصغار فإنهم العسكر.. هيا تقدموا أيها الأبطال، إنهم خائفون!

كان الصغير مندمجا بكليته في إدارة معركة حامية الوطيس، لذلك لم ينتبه إلى أمه إلا حين تمتمت وكأنها تخاطب نفسها :

- إنه يحب "العيش" كثيرا، ولاشك أنه تعب منهوك القوى خائرها، في حاجة إلى طعام دافئ حار.

فبادرها :

- من الذي يحب "العيش" يا أمي؟ أهو أبي؟!

استقرت عليه عينا أمه وأشياء كثيرة لن يستطيع لها فهما تتراقص عليهما، قبل أن تجيبه :

– الضيف، سيزورنا الليلة ضيف كريم يا عزيزي، سيحملك بين ذراعيه ويقول لك: كبرت! كبرت! يا حبيبي! ثم يضمك إلى صدره ويشبعك لثما وتقبيلا...

أصاخ إليها إبراهيم بانتباه، حتى إذا ما فرغت، قال في لهجة جادة :

- مثلما سيفعل أبي حين يعود يا أمي؟؟

- نعم يا عزيزي، تماما، وهو أيضا يحب العيش بلحم الدجاج...

- لكن متى سيعود؟ ألا يمكن أن يحضر الليلة؟

- من يدري، فقد يحضر؟ ادع الله أن يحضر سالما...

ألقى إبراهيم بعض أصداف من يديه. واستوى واقفا، ثم رفع ذراعيه الصغيرتين، وفتح كفيه واتجه بعينيه إلى السماء، حيث يعتقد الكثيرون أن الله هناك، وبصوت متهدج ملائكي قال:

- يا رب، يا سيدي ربي، اجعل أبي يحضر سالما...

دنت منه أمه وهي في طريقها إلى المطبخ، فلثمت جبينه الصغير بينما هو فاتحا ذراعيه رافعا بصره إلى السماء ما يزال، وفي المطبخ -وهو إحدى الغرفتين في الواقع، تتميز عن الأخرى بالمدخنة التي بناها زوجها دون قاعدة فنية، فبقيت لا تمتص من الدخان إلا ما يحلو لها، فتتراكم البقية في كل جوانب الغرفة، ثم تتخذ الباب

الضيق منفذا لها، مخترقة أشعة الشمس في تموج ولون محببين إلى النفس، إن كان النهار صحوا مثل اليوم أو متحدية الريح في الفصول الباردة فتنكسر أمامها وتظل تدور وتدور، إلى أن تظلم الغرفة، وتكاد نوة المسكينة تختنق بداخلها، وتدمع عيناها، ويعتورها سعال جاف مقيت، ولكم صمم زوجها على إعادة بناء المدخنة وقد احضر فعلا الآجر والجبس، ولو لم يفاجئه السفر، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن، لحل المشكل -في المطبخ أحضرت نوة القصعة والدقيق من المزاود المرصفة فوق منضدة كبيرة ينسدل عليها ستار خاطته بيدها منذ سنتين أو يزيد، ثم تربعت على سجادة قديمة وطفقت تفتل الدقيق في القصعة، حتى يؤول إلى حبات متساوية أكبر مرتين من حبات الكسكسي، حتى إذا ما أعدت مقدارا، قدرت أنه يفي لسبعة أشخاص أو ثمانية، وضعته في الكسكاس ليمتص البخار الصاعد من القدر، بعد أن سدت عنه كل منفذ بالعجين...

ولما أعادت بقية الدقيق إلى أحد المزاود وراء الستار، وغسلت القصعة وأوقفتها مع الجدار، راحت تفكر فيما تبقى مما قررت إنجازه منذ الصباح.. لم يبق شيء سوى إبدال ثياب إبراهيم وإحضار ثياب عمار حتى إذا ما عاد قبل الغروب بالبقرتين وجدها جاهزة، أو إبدال ثيابها هي، ومسح أسنانها بالمسواك، وطبعا، وضع شيء من الكحل في عينيها، لتزداد شفتاها المملوءة قرمزية، وأهدابها الغسقية روعة وجمالا...

إن الواجب يحتم عليها كل ذلك، ولو أن شيئا من الخجل سينقض عليها، وقد بدأت تشعر به بالفعل...

لكن مهلا، فالوقت لا يزال متسعا، والظل لم يصل باب الحوش بعد، بيد أنه لا بأس من غسل أطراف إبراهيم بالماء والصابون.

وهمت نوة بحمل وعاء الماء، والخروج من المطبخ لإحضار ماء دافئ من البئر التي لا تبعد عن المنزل إلا بنحو مائة مترا تحيط بها أعشاب مخضوضرة زاهية تنعكس عليها أشعة شمس الأصيل الذهبية، لكنها تذكرت أمرا كانت تتحاشى تذكره، وتود لو تنساه إلى الأبد، فأخرجت ورقة من صدرها، لثمتها بكل وقار وإجلال.. ووضعتها على قلبها لحظة، ثم ألقت بها في المدخنة وجمدت عيناها، حتى أتت عليها ألسنة النار رويدا رويدا، زفرت من أعماق قلبها، وانقطع صوت الشاب الذي ظل يقرع أذنيها منذ سلم لها تلك الورقة في الصباح دون أن تدري ما بداخلها قائلا :

- احرقيها حالما تنتهين من قراءتها. حافظي على سريتها...

***

على أية حال لم تكن نوة تدري أن تلك الكلمات التي ظلت تقرع أذنيها ويتردد صداها في كيانها، هي تفسر الأمر الذي تلقاه الشباب "المسبل" بعد موهن الليل بقليل من مسؤول الناحية السياسي الذي كان يمتطي صهوة جواد ويتسربل "بقشابية" سوداء سميكة أسدل قلنسوتها حتى كادت تغطي عينيه، في طريقه إلى الدواوير يجمع الاشتراكات ويفض ما قد يكون من خصومات ويبلغ الأوامر التي تتجدد وتتنوع، بين آونة وأخرى، تنوع حوادث الثورة، وحركاتها الشاملة، وغالبا ما يصطحبه ليلا جنديان مسلحان، كالليلة.

تلقى المسبل ذلك الأمر الذي بلغه لنوة بعينه ثم انحدر مع سفح الجبل بعد أن ألهب الفرسان الثلاثة جيادهم ونكزوها لتنطلق بهم ويظل وقع أقدامها يؤنسه

فترة طويلة، فقد كان السكون شاملا، لا نسيم يحرك أوراق الأشجار، ولا رفيق يتهامس معه بما يخالج فؤاده، ويدغدغ أحلامه.

ظل يتتبع وقع أقدام الجياد إلى أن تلاشى في السكون العميق، فلم يعد يسمع سوى وقع قدميه هو، أو تطاير الحصى تحتهما، أو انجراف التراب في بعض الأحيان، وانشرح صدره حين أوشك على الخروج من الجبل ليجتاز الطريق المعبدة التي تمر تحته في شبه هلال جميل، ثم يتخذ سبيله المألوف إلى "الدوار" الذي يؤمه، لكن، وفجأة، مزقت الظلام جلبة حركة غير عادية، فأرهف سمعه قليلا، إلى أن تميزت تلك الجلبة وتلك الحركة : أصوات مناشير، وفؤوس، وهمس أناس. فهم كل شيء، لقد كان هو نفسه الذي بلغ إلى مسؤول القسم الثالث أمر إحضار المناشير، والفؤوس، ووضع قائمة في من يقومون بمهمة تخريب أعمدة الهاتف، حتى إذا ما قدمت الدورية وجدت كل شيء جاهزا.

غمرت بهجة غامضة نفس المسبل، فتمتم :

- أأتصل بالدورية، أم أمر في سبيل حالي؟ لأمرن، فلست مكلفا بالاتصال بها، وكل شيء يسير مرضيا كما يبدو وفوق كل هذا فمهمتي قد لا أنتهي منها إلا بعد الظهيرة.

واستأنف سيره يحث الخطى، بيد أنه لم يكد يتقدم عشر أمتار حتى انبعث صوت على مقربة منه :

- من؟

- خمسة من اثنتي عشر..

- إلا واحد.

اقترب من الشبح الذي نهض من الأرض دانيا منه بدوره، فبادره بالتحية ثم سأله :

- كل شيء كما ينبغي؟ أليس كذلك؟ لن تكونوا في حاجة إلي؟

- لحد الآن.. أوراءك شيء..؟

- كان الله في العون...

وانطلق يشق رداء البهمة، ناهبا سايلته نهبا، وسرعان ما تلاشت أصوات المناشير والفؤوس وتبددت كما تلاشى وتبدد من قبلها وقع حوافر الجياد الثلاثة، وخيم سكون رهيب تسمع فيه دقات القلوب ورقصات الآمال، وكأنما استشعر وحشة الليل، فرفع بصره إلى السماء، يتسلى بلآلئ النجوم وراء الغمام، وحين انتثرت نجمة، واساقطت، تابعها بعينيه إلى أن اختفت حيث لا يدري، تساءل :

– أين تذهب النجوم يا ترى؟ أتساقط طوال الليل لتنتهي قبل حلول النهار؟!!

وسار قليلا ثم تساءل :

– يقولون أنها ترجم الشياطين!؟ ويقولون أن الروس يسعون لبلوغها!!؟

وبعد لحظة أضاف :

– ماذا يفعل الشياطين هنالك!؟؟ وهل نفكر نحن في السعي لبلوغها بعد أن نصبح أحرارا كالروس؟

ودون أن ينتظر جوابا لأسئلته استطرد :

– عجيبة، نجمة كاملة تسقط لرجم شيطان لا نقدر حتى على رؤيته!.. ترى كم مضى على الروس بعد استقلالهم حتى يفكروا في بلوغ النجوم..؟ آه لو أبقى بعد الاستقلال وأتزوج وأنجب ولدا، فأرسله إلى روسيا ليقرأ علم النجوم ...

وتتبع نجمة تهاوت إلى حيث لا يدري، ولكن قبل أن تختفي لفت نظره شهاب انطلق على بعد عدة كيلومترات.. رصاصة.. رصاصات.. هجوم على المركز العسكري.. هاه.. هاه! وتمتم :

- الإخوان.. هاه.. هاه.. أيها الشجعان في النهار.. أخرجوا الأن عوض أن تدخلوا في المخابئ... قابلوا الرصاص بالرصاص أيها الأوغاد... أم لا تبحثون عنا إلا في النهار.. هاهي الفرصة مواتية.. اخرجوا، جربوا فقط.. ولا تنتظروا الغد لتسألوا المدنيين ثم تتوجهون إلى الجبل وتعودون بخفي أم حنين..

وظل يتابع الرصاصات، كانت كثيرة، كثيرة جدا، لا ريب أن الفرقة كبيرة، إن الطلقات تنبعث من ثلاث جهات، المركز محاصر.. وتساءل :

- أمن الضروري أن انتظر الإخوان؟، فهذه سابلتهم، وقد يكونون غرباء عن المنطقة فأدلهم...

وبينما هو كذلك، إذ بشهاب قوي جدا ينبعث قرب المركز، يعقبه دوي مهول لم يألف سماعه.. هاه.. شهاب آخر، دوي مهول آخر.. حريق يشب في المركز. وارتفعت ألسنة النار إلى عنان السماء وأضحى كل ما حول المركز يظهر في وضوح : الأشجار، الطاحونة، البئر، حتى البئر تبدو واضحة... أما الطلقات فإنه لم يعد يراها، إنما الانفجارات تتوالى، انفجارات قنابل يدوية ولا ريب.. وتضاعف اللهب وتضاعف...

عليه أن ينظر قدومهم إذن...

لم يكد يقرر ذلك، حتى انتهت إلى سمعه حركة قريبة، وفورا انبطح على الأرض، وشهر مسدسه، فبان له خمسة أشباح.

أإخوان هؤلاء القادمون، أم عساكر فارون..؟؟ وانبعث صوته قويا جريئا :

- من...؟

جاءه الجواب فورا :

- خمسة مع اثنتي عشر..

- إلا واحد

نهض ونهض الإخوان الخمسة، وتصافحوا، ثم سأله أحدهم:

- أي مكان أقرب نجد فيه بغالا وخيلا..؟

وسريعا، كانوا عائدين من القسم الثاني، ومعهم مسبل ثان ومسؤول القسم، ينكزون البغال والجياد طالقين لها الأعنة والأرصنة تركض نحو المركز، وهناك وعلى بعد مائة متر تقريبا وجدوا نفرا من الإخوان، في انتظارهم بصناديق حديدية وأكياس مشحونة بالمؤونة والذخيرة، تعاونوا على حملها على البغال ثم انطلقوا نحو الجبل، وكانت المعركة قد هدأت...

ومرة أخرى كان المسبل ينحدر من سفح الجبل، في نفس الطريق التي سلكها، لكن على صهوة جواد، وصحبة مسبل آخر ومسؤول القسم، يقودون البغال الخمسة، وحين اجتازوا الطريق المعبدة وانعرجوا قليلا إلى اليسار قال المسبل الثاني:

- دمر المركز، وقضى على من به، لقد غنمنا أسلحة هامة، فأضاف المسبل الأول:

- تتبعت المعركة من أولها، لقد استعمل الإخوان سلاحا لم أره من قبل ولم أسمع مثل دويه مذ بدأت الثورة، كان انفجاره مهولا جدا...

فرد المسبل الثاني:

- لعله "البازوكا" التي كثر الحديث عنها، فهم قادمون من الشرق؟ لقد بدأنا ندخل مرحلة جديدة، فمن كان يتصور أن هذا المركز سيدمر بمثل هذه الحالة؟

منذ أقام العسكر به وعطلوا الطاحونة عن العمل بعد أن قتلوا الشيخ "حمانة" المسكين، والرصاص ينهال عليه لكن دون جدوى، سنتان كاملتان لم يتحقق فيهما ما تحقق في ليلة واحدة!..

- بل في لحظات قلائل..

قال المسبل الأول، أما مسؤول القسم فقد تمتم كأنما يخاطب نفسه :

- والفرنسيون.؟ سيفزعون غدا من كل حدب وصوب، ترى كيف سينتهي النهار..؟ يجب أن لا ننسى، أي نعم أن لا ننسى.. كنتما صغيرين ولا ريب، إبان مجازر "قالمة" و"سطيف..." ولكن لماذا نذهب بعيدا، فكم من دوار أبيد عن آخره؟ وكم من قرية لم يبق فيها إلا النساء والأطفال؟ وكم؟ وكم؟ في ظرف هذين السنتين.. إن الانتقام من المسلحين ينصب علينا نحن المدنيين، ولا يعقل أن يتسلح الشعب كله، لكي ينجو من الانتقام.

وكأنما لم يسمعه المسبلان، فقد انبرى المسبل الأول قائلا في حماس:

- السلاح. السلاح.. لا يعوزنا إلا السلاح، إن الرجال، إن الذين هم مستعدون للموت كثيرون وكثيرون جدا. لكن السلاح إي نعم السلاح والرجال قوام الثورات قوام الحروب مهما كانت، تصوروا أننا نملك ربع ما تملك فرنسا من عتاد، تصوروا ذلك جيدا.. لقد تطاير المركز بمدافعه ودباباته وثلاثمائة جندي يربضون به، ثلاثمائة جندي على ما ينبغي من التدريب والمراس، تطاير المركز في لحظات، لقد شاهدت العملية من أولها إلى آخرها لم تستغرق أكثر من ساعة.. إنه السلاح، السلاح والرجال، لو أن لدينا ما لفرنسا لفض المشكل وانتهى الأمر...

وأضاف المسبل الثاني:

- النمو والتطور، لقد بدأنا ببنادق الصيد، لكن لم نتوقف عندها، إن لدينا الآن أسلحة عصرية، منها ما افتكه الإخوان من العدو، ومنها ما عادوا به من الشرق ومن يدري بعد سنة أخرى كيف تكون ثورتنا، إنني لست مثقفا ولكني أعرف. بالمشاهدة والتجربة أن كل شيء ينمو ويتطور، ولكن مع ذلك يجب أن لا ننسى أن فرنسا أيضا ما فتئت تقوي جانبها بالرجال والعتاد، نعم نحن وهي كلانا يسعى بكل جهده لتقوية جانبهن إذن فالحرب، الحرب الدائرة ببلادنا هي التي تتطور، هي التي تنمو، وستظل كذلك، إلى أن نفتك حقنا، وتقلع فرنسا عن غيها...

فاستطرد المسبل الأول حالما :

- مدفعان ثقيلان، لقد شاهدتهما بأم عيني مفككين، بعض قطعهما حملتها البغال، والبعض الآخر حمله الإخوان.. يا الله، منذ الغد ستنطلق من جبالنا، دمدمة المدافع الثقيلة، مرحى، مرحى!

لم يكد يلفظ الكلمة الأخيرة، وكان الفجر قد بدأ يلوح بخيوطه، فاختفت من السماء أو كادت النجوم، وادلهم الظلام إذ بأشباح ثلاثة يتسللون مع لشعبة التي أوشكوا قطعها، يحثون خطاهم في اتجاههم، فبادروا للوثوب من ظهور الجياد، وانبطحوا على الأرض وراء كومة من الحجارة ومن أغصان الأشجار، جرفتها معها المياه في فصل الشتاء.

اقترب الأشباح الثلاثة، وتميزوا شيئا فشيئا... ثلاثة شبان في مقتبل العمر، يرتدون اللباس العسكري، تحت إبط كل منهم -بندقية رشاشة، وعلي ظهره، جراب يبدو أنه ثقيل جدا...؟ أخرج المسبلان سلاحهما : مسدسان أحدهما أمريكي، والآخر ألماني، بينما مسك مسؤول القسم بكلتا يديه أرصنة الجياد الثلاثة التي أوثقت أرصنة البغال الخمسة بدورها إلى سروجها.

وفجأة مزق السكون، صوت المسبل الأول في قوة وجرأة :

- من؟

المسبل الأول في قوة وجرأة :

وقف الشبان الثلاثة، ولكنهم ظلوا جامدين، لا يعيرون جوابا، لحظة ثم التفت كل منهم إلى صاحبه كأنما يستلهمه الجواب... أضحى يقينا لدى المسبلين، أن الوافدين ليسوا من الإخوان، إذ لا يحملون كلمة السر.. قد يكونون بعض الذين نجوا من المركز العسكري الراحل.

- من؟ سنطلق النار، الأول أن تطرحوا الأسلحة، وترفعوا أيديكم.

قال المسبل الثاني، وجاء الجواب سريعا، طرحت البنادق أرضا، ورفعت الأيدي إلي المناكب، فوثب المسبلان، واختطفا الأسلحة وشهراها في وجه الشبان الذين قال من شاء حظه السيئ أن يكون في المقدمة :

- إخوان لكم، فررنا من المركز العسكري، نريد الالتحاق بالثوار، المركز الذي يقع قرب القرية، لقد سرنا.... قرابة العشرين ميلا.

كل جندي فارن، يكون على موعد مع الثوار أو علي علم منهم على الأقل فهل تحملون رخصة أو كلمة السر؟

قال المسبل الأول، فأجيب :

- أمس فقط جئنا من وهران، و الليلة وزعنا علي المراكز، وها هنا نحن ....لقد قتلنا الحارس، و...

نظر المسبلان إلي بعضهما، بينما انبرى مسؤول القسم :

- حقا لقد حلت قافلة جديدة أمس والمعلومات التي لدي تؤكد أنها من وهران لكن أتعرفون من كم تتركب هذه القافلة..؟

- من أربعمائة جندي، ثمانون جزائريون ...والبقية،

- هاه، كفى، كفى، البقية : مائة وعشرون من فرنسا، و تسعون من اللفيف الأجنبي، ومائة وعشرة من السود... حسنا، حسنا، وقد علمت أيضا أنهم سيوزعون على مختلف المراكز ....

- نرحب بكم كثيرا، ونتعهد بإيصالكم إلى الإخوان، هيا ليمتط إثنان منكم جوادين و الثالث أحد البغال، أسرعوا.

وهمس المسبل الثاني في أذن زميله :

- يتحتم أن أنجز المهمة قبل الظهر، إنك تعرفها القائد مسعود، اليوم أجله. اذهب بهم وحدك.

ومرة أخرى كان المسبل ينحدر من سفح الجبل يركب جوادا ويقود اثنين، بعد أن التقى بمسؤول الناحية السياسي عرضا وسلمه الشبان الثلاثة وأسلحتهم.

بزغت الشمس تلثم الكون بدفئها وتزيل ما علق به من صقيع و جليد، وتحمل البشري لنوه التي طرق المسبل بابها وهمس وهو يناولها الرسالة :

- احرقيها حالما تنتهين من قراءتها، حافظي على سريتها

..أو يظن أنني سأقرأها بنفسي. وحسرتاه. قرأت قليلا من القرآن في صباي ولكنني نسيته.

جال ذالك بخاطر نوه وهي تدس الرسالة في صدرها، ثم قررت تأجيل حلب البقرتين إلى أن تعود، وانطلقت نحو دار الحاج العربي الوحيد الذي تثق فيه، والوحيد الذي يقدر أن يفهمها...وخيل إليها وهي في طريقها، أنها لا تطأ الأرض بقدميها، إنما هي تحلق في أجواء السماء، في عالم لازوردي جميل وودت لو تسمع تلك الأطياف المتراقصة الهازجة بأناشيد الفرحة والمسرة، لو تسمعها أغنية حبيبة إلي نفس كل جزائرية :

"ماتبكوش يا رليداتي باباكم راه جاي" بيد أنها ظلت تهمس بها في قلبها "ماتبكوشي"، "مات بكوشي"، "يا وليداتي"

" باباكم"، "رآه جاي....رآه جاي".

و ليست تدري كيف قطعت المسافة وطرقت الباب، واستقبلها صبي جميل ودت لو تقبله. سألته عن جده فقال لها :

- انتظري حتى يصلي......

وإلى جانبه وقفت تنتظر بفارغ الصبر ما سيفوه به، وتتابع قسمات وجهه، علها تستشف منها ما تقرأه عيناه، وأخيرا وبعد صبر مرير قال الحاج العربي :

- الحمد لله.

- ماذا يا عمي الحاج؟

- خطها واضح، لقد حمدت الله على ذالك، فبصري كما لا يخفاك.....

وبعد ساعة أو يزيد، كانت نوه عائدة والجذل و السرور يكادان يثبان من قلبها، ويمسك كل منهما بيدها، ويسيران إلى جانبيها، وبين آونة و أخري يطوقها أحدهما بذراعيه ويشبعها لثما وتقبيلا، ورفعت بصرها إلي السماء، ثم أجالته في الحقول الزاهية التي تتلألأ فوقها أشعة الشمس على قطرات الندى، وودت لو تطير، وتطير أن تبلغ الشمس فتطبع على جبينها، قبلة الاعتراف بالجميل..... الشمس التي نهضت من مرقدها وبين أناملها اللطيفة تلك الرسالة. رسالة جبار

بيد أن شيء راودها، لقد تذكرت ويا ليتها لم تتذكر ...وليتها لم تسمع كلمات الشاب :

- احرقيها حالما تنتهين من قراءتها. حافظي على سريتها.

وعبثا، تناسب، طوال النهار. لكن...لكن، هاهي الرسالة تحترق، هاهي تتحول إلى رماد، هاهو دخانها يختفي في دخان لأخشاب...كما لو لم تكن قبل ثانية، تشع الدفء والحب في صدورها، وتبعث الأمل والبسمة في حياتها...

...وبذالك انقطعت كلمات المسبل عن قرع أذنيها. بيد أن هذه الزفرة الحارة التي أرسلتها قبل أن تحمل الوعاء و تتجه إلي البئر، ليست تدري لماذا...؟

***

غسلت أطراف إبراهيم بالماء والصابون، وبمشقة ألبسه حذائه الضيق، ثم قالت له :

- إياك أن تجلس على التراب، فتلوث ثيابك، يجب أن تبدو نظيفا أمام الضيف، لا تقل لأحد إننا ننتظر ضيفا، حذار. هيا قبلني يا عزيزي.

قبلها إبراهيم ثم خرج مزهوا، مرحا، متباهيا، وتقدمت هي نحو الصندوق الكبير المزخرف بشت الألوان والرسوم، فتحتـــه، وتنــاولت منه "القوفية" و"الشعيري" و" القفطان" وضعتها جانبا، ثم أخرجت الثوب البنفسجي الجميل، بيد أنها ظلت تمسكه، وتحدق فيه بنظرات تبدو بلهاء.. كان خيالها قد سرح إلي الماضي، الماضي البعيد، إلى ما قبل تسع سنوات.

وتراأى في مخيلتها شريط زاخر مفعم.

بدأت قصتها مع جبار منذ كانا صبيين غريرين، لا يفهمان من أمور الحياة شيئا، يجلسان جنبا إلى جنب أمام والده الذي كان يحفظهما مع صبية الدوار القرآن الكريم، مدة سنتين كاملتين، ثم انقطعت صلتهما.. انتقل جبار إلى القرية ليدخل المدرسة، وأهدي لها يوم عاد في أول عطلة، قارورة عطر صغيرة، وعقدا

نحاسيا جميلا، وبعض أشياء أخرى، لم تعرف نوه كيف تتصرف فيها، فحفرت لها حفرة خبأتها فيها، لتظل تزورها كلما سنحت الفرصة... وكان ممكنا أن يتواصل اتصالهما، لو لم يرتحل والد جبار إلى دوار آخر......

وتقدم الزمن بخطوات، خطوات عملاقية،سنة، اثنان، ثلاث، أربع، خمس، خمس سنوات كاملة.... وكبرت نوه، ولا شك أن جبار أيضا كبر، لكنها نسيته، وبهتت صورته في مخيلتها، إن لم تتلاش تماما، بيد أنها ظلت تتوق إلي شيء، شيء أشبه بجبار، شيء هي محرومة منه، إلي صدر عريض و ذراعين قويتين، إلى من تبثه -على الأقل - ما تعانيه من زوج أبيها، وتجد لديه الحنان والدفء، والثقة.

وذات يوم...

وكان الثلج ينشر رداءه الأبيض الناصع، علي الأرض، والأكواخ، والأشجار، والريح تعصف قوية، والسماء ملبدة بالسحب...

عاد جابر، فجأة!

كان يمتطي بلغة سوداء، ويرتدي " قشابية" قلنسوتها بعمامة بيضاء، لم تعرفه بادئ الأمر، فولت هاربة، لكنه وثب إلى الأرض هاتفا :

- نوه... هاه لم تعرفيني...؟

- جابر؟ ياألله... من أين خرجت...؟

التفتت حولها، عل أحدا غيرهما في الإسطبل، ثم تقدمت منه، و..سمحت له أن...يعانقها ويقبلها... ثم ولت هاربة، وخرج أبوها... سلم علي جبار ورحب به ثم أحضر له كانونا وقهوة، وحاول استبقاءه للغذاء لكنه رفض، فأعانه على لف التبن في الشبكة، ثم علي حملها على البغلة وودعه.

حرجت نوه ولبثت تراقبه والريح تعبث بشالها الأحمر، إلى أن اختفى جبار وسط الثلوج والزوابع، لكن طيفه لم يختف، وقبلته لم يزل طعمها من فمها،وأنفاسه الحارة ظلت تبعث قشعريرة لذيذة في جسدها، وتوقد الحرائق في دمها...

وبعد أشهر، وفي ليلة ليلاء، اضطرت إلي الهروب معه، أمام إصرار زوج أبيها علي أن لا تتزوج إلا من أخيها...

كانت البهمة تكبل الكون، و السكون يضرب أطنابه، عبثا تحاول تمزيقة نبحة كلب، أو صفير أحد الخماسة الذي ينبعث بين آونة وأخري، حثا للكلاب علي اليقظة، وإشعارا لمن تراوده نفسه بالتلصص، بأن أهل الدار إيقاظ... خرجت نوه من غرفتها على أصابع قدميها، والتفتت إلي الغرفة التي ينام فيها أبوها وزوجته، وأرهفت سمعها حينا، ولما اطمأنت إلي أنهما نائمان، تقدمت نحو صندوق كبير يغطيه جلد ثور كيلا تبتل النخالة التي بداخله، وكانت قد وضعت في النهار فوقه كرسيا حديديا من مخلفات جنود الحلفاء، صعدت فوق الكرسي، ثم قذفت بالرزمة التي تحملها إلي الضفة الأخري من الجدار، وانتظرت انقطاع نباح الكلاب ، ثم تسلقته، وبعد لأي وجهد، بلغت الأرض دون إحداث أي جلبة...حملت رزمتها، ثم تدلفت إلى الزرع، فأحدثت رغم حذرها خشخشة تفطنت لها الكلاب و انطلقت نحوها في نباح مسعور، بيد أنها ولت الأدبار حين اقتربت منها وعرفتها، وحمدت نوه الله علي ذالك، وألهبت قدميها، تثب هنا وهناك، والذعر والجزع يستوليان عليها ضاعفتهما انطلاقة رصاصة مرت قرب أذنها اليسرى، ثم تلتها أخري، لو لم يصادف أن تتعثر وتقع على الأرض لتمكنت من كتفها.

ولم تدر أطال الوقت أم قصر، إنما تنبهت وهي توشك أن تبلغ الوادي على صوت خافت تعرفه جيد المعرفة :

- نوه؟

- جبار؟

ساعدها على الركوب وراءه، ثم ألهب ظهر الفرس بسوط، و نكزها، وغمرته نشوة لذيذة حين لفحت وجنته اليمنى أنفاس عطرة، وقبل أن ينطلق بها بعيدا يشق رداء البهمة، متحديا العوائق التي اعترضت حبه همست نوه في أذنه :

- أسمعت البارود؟ إنها رصاصات أبي.

- لقد نجوت، نجونا معا، بيد أنني لا أؤكد لك مرة أخرى أن تثبتي في موقفك أمام أي كان...

- لقد تعاهدنا وانتهى الأمر، الرجوع إلى الوراء مستحيل......

وأشرقت الشمس، ثم غربت، وبعد ستة أيام، عادت نوه إلى دار أبيها، وتم الصلح دون اللجوء إلي السلط وإنفاق أموال طائلة في شراء الخمر للجندرمة، ودون حمل الخرفان أو أكياس القمح إلى القاضي، وشهد دوار أهل نوه ودوار أهل جبار، يوما خالدا، تبارت فيه الجياد العربية الأصيلة، وتغني المغنون ودمدم بارود الفرح وحملت نوه في موكب رائع عروسا إلى دار جبار، معبودها البطل، ورفيق صباها... واستقبلتهما حياة هنيئة سعيدة، وابتسمت لهما الدنيا فنمت ثروة جبار وأنجبا عمار وإبراهيم ولم يكدر صفوهما أمر، حتى وفاة أبويهما، إلى أن كانت تلك الليلة المشؤومة...

ليلة ودعها جبار والتحق بالثورة، فلم تسمع عنه نبأ أو تتلقي منه رسالة سوي هذا الصباح حين طرق المسبل بابها وناولها ورقة قائلا :

احرقيها حالما تنتهين من قرائتها حافظي علي سريتها.

ثوب العرس؟ لاشك أنه سيبتهج حين يراني به، فطالما، تحديت لومه ولم أرتده.

قالت نوه ذالك، ثم نشنشة ثيابها القديمة وارتدت قميصا طويلا ذا كمين حريريين شفافين ثم " القفطان" ثم ثوب العرس البنفسجي الجميل، ثم وضعت " الشعيري " في عنقها وسوت " القوفية" المدبجة بقطع فضية مطلات بالذهب علي رأسها وأمالتها قليلا إلي اليمين، ثم تسوكت ومررت علي عينيها ريشة غمستها في قارورة الكحل وتقدمت إلي المرآة فبدت لنفسها جديدة تماما، ولعن الله الظروف التي أجبرتها طيلة سنتين على أن لا تكون جديدة -كما خطر لنوه- التي تمتمت :

- أليس الأولى أن لا أتزين؟؟ لكن ما يضير بعد سنتين...

لم يرني خلالهما جبار...؟

ولم تكد تلفظ الكلمة الأخيرة، حتى دخل عمار لاهثا يستولي عليه الجزع والذعر، وهو يصرخ:

-أمي، آه يا أمي. العسكر!!!، العسكر الطائرات، الدبابات..العربات.هيا هيا، الجبل.إلي الجبل.

قاطعته : ماذا.... تقول؟

نعم، نعم، هيا اسرعي....

بدأت القنابل تتساقط، وامتلأت السماء بأزيرالطائرات، وهرعت نوه مع من هرع من المذعورين الذين شهدت الكثير منهم يخرون صرعى أمام الرصاص وشظايا القنابل، واختلط الأمر، وشبت النار في الأكواخ.

ضربت نوه خديها بكلتا يديها ثم أطلقت ساقيها للريح، تعدو، ناسلة، لاهثة، لاتعي من أمرها شيئا، لا تفكر حتى في أبنيها، عمار، وإبراهيم، إنه الذعر، إنه الفزع إنه فرار الروح من الموت المحقق...

شقت السنابل تثب هنا وهناك، تماما، مثل تلك الليلة التي لاحقتها فيها رصاصة أبيها، وأصم الأزير أذنيها فلم يبلغها نداء عمار خلفها :

- أماه، أماه، يارب يا أماه...

ووراء صخرة كبيرة في سفح الجبل انبطحت، كما تعودت كلما أقبل العسكر. وقبل أن يهتز قلبها حتى كاد يتفطر بين ضلوعها، حين تذكرت ابنيها... أطل عليها عمار دامي الوجه ممزق الثياب حافي القدمين مثلها ارتمي بين أحضانها، في جنون، ثم أرسلت بصرها إلي الدوار.. الحرائق ما تزال، الدخان يلامس السماء. إلي أين ستعود؟ ستظل هامدة بين الصخور، كأنها الإنسانية.. ها هي الطائرات والدبابات مقبلة نحو الجبل، إنها تطارد من نجا ولا ريب، لكن ستمكث هناك، هي منهوكة القوي، وابنها أكثر... ثم رفعت بصرها إلي الأفق، وبنظرات حقودة رمقت الشمس التي تبرجت وأقبلت في ثوب ذهبي هفهاف إلى خدرها، وخطر لنوه أن تعاتبها :

-أيتها الكذوب اللعوب، ألم تحملي في الصباح التباشير؟ عودي لتشهدي قصة الإنسان...

بيد أنها ليست تدري كيف انفلتت منها زغردة وتلتها أخرى، ثم أخرى، وظلت أصداؤها تتجاوب في الجبل، حين انبعثت نيران المدافع والرشاشات من كل مكان حولها، وأبصرت بأم عينيها طائرة تحترق في السماء، وعدة دبابات تتطاير شذر مذر، أما العربات فقد ولت الأدبار مثل بقية الطائرات... إنهم

المجاهدون، إنهم الثوار، أولئك الذين عجز العسكر عن اكتشافهم، فراح ينتقم من المدنيين الأبرياء...

ألا يكون زوجها جبار من بينهم؟

والتفتت نوه وراءها. وفغرت فاها مشدوهة، إنه هو

هو بعينه. زوجها، قائد الفرقة التي حطمت البارحة المركز، وردت الصفعة اليوم للعدو. هتفت نوه :

- جبار؟

وأردف عمار :

-أبي...

لو كان إبراهيم معهما ولم تلتهمه النيران لهتف بدوره :

- أبي...

جذبت الشمس الغطاء علي وجهها وخيم الظلام على الكون، وانسلخ يوم من أيام الحرب، التي قال المسبل الثاني البارحة، إنها ظلت وستظل تنمو وتتطور، إلى أن يرتحل الغاصبون عن بلادي...



محو العار

جلس الشاب الأسمر النحيف الذي يشع من عينه العسليتين ذالك الذكاء الفطري الذي لا تخلو منه عينا أي واحد من أبناء الصحراء في انتظار العجوز الفرنسية التي دعته إلي هذا الاجتماع المضيق، الذي لم يكن بالغريب عنه حتى يشغل نفسه كثيرا بالتفكير فيه، لقد تعود أمثاله منذ صباه، فما من مرة ارتكب مخالفة في المدرسة أو خارجها إلا ودعته لمثل اجتماع اليوم وأنبته وعنفته، وما من مرة وقعت في مشكل من مشاكلها المتعددة المتنوعة، إلا ووقع استدعاؤه لمثل هذا الاجتماع، للتأمل معه، بحثا عن الحل لمشكلها، وبكل صراحة ليقدم لها الحل فقد كانت بدورها تثق الثقة العمياء في ذكائه.

ولما فرغت العجوز من سقي الأزهار والورود، وألقت بشيء من الحب إلي الدجاج، ثم رمقت قفص الأرانب بنظرة قصيرة لا تخلو من قلق ملحوظ، أقبلت نحوه، وعلي مقعد وثيرا استوت ثم تأملت، كعادتها، عينيه العسليتين اللتين لم تخف إعجابها بجمالهما منذ كان غرا غريرا لا يفقه من أمور الحياة شيئا، فلم يجد الشاب بدا من أن يبادلها شبه ابتسامة، فانفجرت شفتاه، القرمزيتين لتنكشف أسنانه الناصعة البياض.

وبصوت خافت شيئا ما قالت العجوز :

- إصغ إلي جيدا بلخير، أنا أمك، مثل أمك، ألم تترب في أحضاني؟ لقد أشرفت علي تعليمك ثلاث سنوات كاملة... ولو لم تكن تفر من المدرسة، ولو لم يتوق المرحوم زوجي لواصلت تعليمك إلي النهاية، ومنذ انقطعت عن الذهاب إلى المدرسة، جعلتك ساعدي الأيمن في القيام بكل الشؤون، خاصة في تسيير النزل، ورغم اعتنائي بتربيتك تربية حسنة، فإنني لا أخفي عنك أن مجهوداتي أعتبرها ذهبت أدراج الرياح، والحق أنه لا يليق بك أن تربي إلا في الجيش الفرنسي، فالعسكرية وحدها هي الكفيلة بتربية من لم يترب في مدرسة الحياة...

هوه... إنني لا أعني بكلامي هذا، أنه ينبغي أن تحمل حقيبتك وتقصد من توك المركز لتجند، كلا، كلا، انتظر حتى أموت أو أذهب إلي فرنسا نهائيا؟ حسنا، غرف النزل العشرون أعتقد أنها نظيفة، مرتبة، أليس كذالك..؟ لقد طلبتك لتعاونني على حل مشكل جد عويص...

اعتدل الشاب في جلسته، حين انتهت العجوز من درسها المألوف، ودخلت صلب الموضوع الذي من أجله عقدت به هذا الاجتماع، ثم طرح عليها السؤال التقليدي :

- أي مشكل تعنين؟

- مشكل الأرانب، إنها ما تنفك تموت منذ جلبتها، الواحد إثر الأخر، لست أدري لماذا؟ فالشروط الحياتية متوفرة، الأعشاب والخضر، أحرص دائما على أن تكون جديدة، والصناديق تنظفها أمك كل صباح؟؟

ابتسم بلخير ابتسامة عذبة، ثم فرك يديه، وسألها :

- أين وضعت الصناديق؟؟

- لماذا؟؟

- أريد فقط أن أعرف ما إذا كانت الأرانب تتمتع بالهواء الكافي، أم لا؟

قهقهت العجوز كالطفل الصغير، مكشرة عن أنيابها ثم قالت جذلى :

-كم أنت ذكي، فطن، أيها الشاب الطيف، لم يدر بخلدي قط، أن أفكر في هذه النقطة، لقد نبهتني إليها الآن فقط.. يالك من ذكي... إن الصناديق في المخزن الكبير الذي بجانب المطبخ.

-إذن فالهواء، هو الذي ينقص أرانبك، جربي أن تخرجي الصناديق إلي الحديقة، فيقين أن الهواء النقي هو الدواء الناجع لها....

-شكرا، شكرا، بلخير، سأجرب كما قلت، إن آراءك دائما صائبة، وحلولك أبدا ناجعة.

***

عاد بلخير إلى النزل الذي لا يبعد عن مسكن العجوز إلا ببعض أمتار، فألقى نظرة على لوحة المفاتيح.. سكان النزل قد غادروا بيوتهم كلهم إلا الجنديان، لا شك أنهما استيقظا وعلي أهبة الخروج، فالساعة الآن التاسعة.. خفق قلب بلخير حين تذكر الجندية، ورنت في أذنه كلمات العجوز العقيم التي سمعها منها للمرة الأولى :

"العسكرية وحدها هي الكفيلة بتربية من لم يترب في مدرسة الحياة....!"

وراح يتساءل : العسكرية؟ إي نعم العسكرية؟ لا جدوي من التفكير في التربية، فالعجوز دائما تهذي بأنها بذلت ما في وسعها لتربيتي. لكن العسكرية؟ ماهي العسكرية؟ وما هي حيات العسكري؟ يقين أنها ليست مجرد لباس

جميل يستهوي الأفئدة فحسب، إنها شيء آخر، فما هو هذاك الشيء ياترى.

آه! لم لا أتحدث مع هذين الجنديين في الموضوع؟ حسنا ليكن ذالك...

انتهي الشاب إلي هذا القرار، ثم صعد إلي الطابق العلوي وفي الغرفة المجاورة لغرفتي الجنديين انسدح على السرير، ثم أطلق العنان لأفكار لا عهد له بها، تنساب في رأسه انسياب الماء في جدول من جداول واحات "الجلفة" الغناء. استعادة شريط حياته منذ كان صغيرا، إلى تلك اللحظة التي قالت له فيها العجوز هذا الكلام الذي يستوجب إعادة النظر في كل الأسس التي تقوم عليها حياته، ولكن هل هناك أسس تقوم عليها حياته؟...

مات أبي وأنا في المهد، فلم تجد أمي وسيلة لضمان قوتنا غير العمل عند العائلة الفرنسية هذه، مقابل أكلة الصباح وأخرى في المساء، هكذا كان الاتفاق أول يوم كما قالت أمي ولو لا عدم إنجاب هذه العائلة لأي ابن، لما طلبت المرأة من أمي أن تمنحني لها لتربيتي معجبة بجمالي، ولما تحسنت ظروف أمي المعاشية بعض الشيء فغدا منذ ذالك الحين، أي منذ سبع عشرة سنة هذا هو أساس حياتنا الوحيد.. عجبا.

ماذا لو ينهار هذا الأساس الواهي؟ لو تطردنا العجوز الفرنسية أنا وأمي المسكينة؟ إلي أين سنذهب، بل ماذا سنأكل؟ إلى غير ذالك من الافتراضات العديدة والمحتملة كلها؟؟؟ يا لهذا الأساس الواهي القائمة عليه حياتنا....

ترى هل يتقاضى العساكر مرتبا؟؟

وحين أضاف الشاب بعد أن تململ علي السرير بصوت مرتفع :

لا شك أنهما أست يقضا.

انتهى إلى سمعه صرير باب إحدى الغرفتين، فوثب لحينه وأسرع إلي الغرفة، فحيى بأدب واحترام العسكري الذي كان قد ارتدى بزته، ثم سأله هل نام نوما مريحا في النزل، وبالرغم من جفاف لهجة محدثه واقتضاب كلماته، فإنه لم ييأس من أخذ ما يحتاجه من معلومات عن الجندية، فقد استجمع أنفاسه ثم ألقي السؤال الذي ظل ينمق عباراته جيدا :

- ألا تستطيع أن تعطيني بعض المعلومات عن العسكرية.. فإنني أفكر في الانخراط بها، ولكن مع الأسف اجهل كل شيء عنها؟

قهقه الجندي، مصلصلا، ثم ربت علي كتف الشاب الذي أبى أن يجاريه فابتسم، دون أن يفقه شيئا، سوى أنه خشي أن يخيب الجندي ظنه، فلا يخرج عن القهقهة كلما ألقي عليه سؤالا، إلا أن أمله لم يخب فقط بادره :

- أتدري ما الذي أضحكني، لقد ألقيت سؤالك هذا بعينه في فترة من حياتي، وكان الجواب قهقهة مثل قهقهتي بعينها.

- يا للعجب. أي سحر تنطوي عليه العسكرية بالنسبة لنا، قل لي ما الذي دفعك إلى التفكير في هذا الموضوع؟

- لم أجد أية أسس تقوم عليها حياتنا أعني حياتي، وكذالك لم يتراءا أي حل لها...

آه كفى، كفى، لم يتراء لك أي حل غير أن تلتحق بالجندية، إنه مشكلتنا جميعا.. اسمع يا بني، العسكرية هي مقامرة. مقامرة بالحياة... هي الحروب، في كلمتين هذا هو جواب سؤالك، لقد قضيت ست سنوات في العسكرية، وما تزال أمامي سنتان هما أملي كله، إما أن أنجو فيهما، وإما أن أخسر حياتي دفعة

واحدة.... على كل استمع مليا إلى ما سأقوله لك، أو بالأحرى إلى هذه الحكمة المتداولة :

يا ذاهبا للهند الصينية، هنالك الحرب فإما أن تعود بأسنان ذهب أو بساقي حطب.

هذا فقط، ما يسعني أن أقوله لك عن الحرب وعن الحياة العسكرية، والرأي رأيك على كل حال .

بعد يومين لا يعلم إلا الله كيف قضاهما بلخير، فقد غمرته أزمة خانقة، وانصبت علي رأسه الصغير جميع الأفكار التي لم يألفها، وطرح على نفسه ألف سؤال أو أكثر، دون أن يجد لها ولو جوابا واحدا، يمكن أن يكون خيطا يبشر بزوال الأزمة...بعد يومين أرسلته العجوز إلى السوق، لإحضار الخضر والحشائش للأرانب، فلم يكد يجمعها ويخطو الخطوتين عائدا حتي فوجئ بمنظر استرعى انتباهه : جماهير غفيرة محتضبة حول عربة، ماذا هناك؟ وتقدم ليعرف ماذا هناك..ومن النظرة الأولى أدرك ماذا هناك...بل وأكثر من ذالك عثر عما يود العثور عليه، فأرهف سمعه وراح يلتقط بنهم وشغف ما يفوه به الرجل الذي اعتلي العربة العسكرية، وكان بدوره عسكريا، بل ظابطا، قال الظابط :

تطوعوا تربحوا، تطوعوا، تربحوا، الكيلو غرام بألفي فرنك... من كان يزن سبعين كيلو يكون نصيبه مائة وأربعين ألف فرنك..مائة وأربعين ألف فرنك، أيها السادة، الأمر ليس بالعبث، إنه جدي، أقصى ما يكون الجد، إنها فرصة يجب اغتنامها..اليوم فقط زرناكم، وقد لا نعود إلي جلفة إلا بعد سنين..ومن يدري فقد لاتعود الفرصة مرة ثانية،...الكيلو غرام الواحد بألفي فرنك، أي نعم، وإنها لفرصة سانحة ينبغي أن لا يفوتها أحد، لا ترددوا..من يتقدم؟؟

فكر بلخير أن يتقدم..قائلا

- أنا....ها قد تقدمت.

بيد أن آخر سبقه، فتقدم نحو الضابط الذي أحاله علي ظابطين كانا يجلسان حول منضدة صغيرة وواصل كلامه بلهجة أشد حماس من ذي قبل:

- وليس هذا أيها السادة معناه إن الإنسان باع نفسه..كلا، كلا..يجب أن لا يفهم من كلامي أن فرنسا تشتري الناس بالمال،لا، أيها السادة، إنما هي توفر للشباب فرصا للاثراء والتكون في نفس الوقت مع أبنائها...والتطوع ابتداء من أربع سنوات فصاعدا، ويستطيع الإنسان تجديده حين ينتهي أجله، وفوق هذا وذالك فان المتطوع الذي يخدم فرنسا بإخلاص أمامه فرصة الارتقاء في الرتب..وعدد الضباط الذين بدأوا حياتهم العسكرية مثل هذا الشاب الشجاع الذي تقدم الآن كبير لا يحصى، أما المرتب فإنه لا يحتاج إلى أكثر من كلمة ... إنه مغري.. وكفى أيها السادة تطوعوا تربحوا...الكيلو الواحد بألفين فرنك..فمن يتقدم؟ من يتقدم أيها السادة؟؟

أنا...أنا....

لم يدر بالخير كيف انفلتت منه هذه الكلمة التي التقفها الظابط من فمه ليبادره :

أتقول؟ هيا تقدم أيها الشجاع. تعال.

بخطوات مضطربة، تقدم بالخير مصمما علي أن لا يدع أي مجال للتردد، ودون أن يتساءل، هل أحسن صنعا أم لا؟

وهل أنه اقتنع حقا بوجاهة ما أقدم عليه؟ إنه ذكي، ويعرف أنه ذكي، وله الثقة فيما يتخذه من قرارات ولو كانت ارتجالية،... ومهما يكن فإنه يجهل أن القرار

الذي اتخذه إنما شاركته في اتخاذه الحياة، حياته المنعدمة الأسس، والظروف، ظروفه المنعدمة الأفاق والأبعاد، كما يجهل أن كلمات العجوز العقيم قد أصابته في الصميم لأنها نبعت من صميم الواقع المر، وعبرت عنه....

سأله أحد الظابطين اللذين وقف أمامهما، تلتهمه أعينهما التهاما.

- ما اسمك؟ وكم عمرك يا بني؟

- مساعدية بلخير، مولود في 23 جانفي 1938 بالجلفة.

أجاب الشاب دون أي تردد، وانتظر لحظة ليقدم له الدفتر فيمضي أمام اسمه...

تلت تلك اللحظة الرهيبة التي قرر فيها الشاب الحائر مصيره، كلا، إنه لم يقرر مصيره، إنما ارتمى فقط في أحضان المجهول، تنصلا من حياته التي لا تنهض على أساس...تلت تلك اللحظة أيام كوالح، وليال أشد قتامة من ديجور حياته نفسها، فكانت أمه العجوز المسكينة، ما تنفك تنوح وتعول، فاسحة المجال لصدرها يرسل الآهات الممزقة للقلوب، أما العجوز الفرنسية العقيم، فمع شديد أسفها لفراقه شغلت بالمشكل الذي ترتب عن انقطاع بلخير عن العمل في النزل، ولو أن الشكر الحار الذي أطراها به الجند رمة حين بلغ إلي علمهم الخبر خفف بعض الشيء من أسفها، فراحت تفكر جديا في مشكل من سيخلف الشاب الراحل، الذي قال لها بكل صراحة، حين أرادت أن تعبر له عن أسفها، وتلومه عن فعلته التي لم يستشرها فيها :

- أنت السبب، لا لأنك ألقيت في رأسي هذه الفكرة، بل لأنك فصلتني عن التعليم، لكي تعلميني كيف أنظف وأرتب غرف النزل العشرين، ومع ذالك فإنه

لا يسعني إلا أن أوجه إليك الشكر الحار، على ما منحته لنا من إعانة، وعلى الإحسان الذي لقيته لديك...

دقت العجوز الشمطاء يدا بيد، محتجة ولقد ركبها الغيظ حتى اختنقت العبارات في حلقها، ثم قالت :

- أهذا ما تجازيني به؟ هذا الخنجر الحاد بعد عشرة، سبع عشرة سنة، شكرا، شكرا، بلخير، كنت أعتقد أنك تعتبرني مثل أمك شكرا، شكرا يا ابني بلخير الذي تربى طيلة سبع عشرة سنة في أحضاني....

ودون أن يأبه الشاب لعبرات العجوز التي انحدرت تتخذ تجاعيد وجهها مجاري لسيلها، ودعها غير مكترث، ثم انصرف إلي الكوخ الذي انتقل إليه هو و أمه البارحة فقط، فسلم لها المبلغ المالي الذي باع به نفسه، باع به الستين كيلوا غرام التي يزنها لفرنسا تسخرها مثلما يحلو لها، طيلة أربع سنوات، بأيامها ولياليها، في ظروف وأماكن يجهل عنها كل شيء،لا يملك عنها أية فكرة ... وبعد أن أوصى أمه بالاقتصاد وسعها أن تقتصد حتى لا تطأطئ رأسها لأي كان، وبأن تنال قسطها من الراحة بعد تعب العمر من أجله، احتضنها، وضمها بقوة إلى صدره، وراح يلثم وجهها الذي بللته الدموع المنهمرة، ولم يكد يتخلص من بين ذراعيها، ويبتعد عنها ليخفي دموعه حتى انتهى إلى سمعه صوت يناديه بالفرنسية :

- مساعديه بلخير.

أحنى الشاب ظهره وأطل خارج الكوخ، وإذا به يبصره الجندرمي الذي بادره وهو يبتسم :

- أمستعد؟ هيا ستسافرون اليوم أيها الأبطال. أعني الآن.

حدق فيه الشاب بعينه المغروقتين، هنيهة ثم أطل إلي داخل الكوخ، وبصوت متدهج هتف:

- الوداع، وداعا يا أمي....

ودون أن يفكر في انتظار جوابها التفت إلى الجندرمي، وود لو يقول له :

- أنا الآن ملك لكم، إنني مستسلم، خذوني، افعلوا بي ما تشاءون... أعرف أنكم ستفعلون ما تشاؤون..

إلا أنه آثر الصمت، وتبعه، مطأطئ الرأس، غارقا في شبه غيبوبة كأنما ألقي بنفسه من قمة شماء ليهوي إلى قرار هوة سحيق.....

قبل أن يمتطي العربة التي ستغادر به" الجلفة" قريته العزيزة التي لم يشعر بأنه يحبها...يحبها من أعماق قلبه، حبه لأمه التي وإن لم يترب بين أحضانها، ولم يكن ليشعر بأنها أعز ما في حياته، إلا حين صمم أن يفارقها، وأدرك الدوافع التي حدث به إلى ذالك، قال له الجندرمي الذي اصطحبه :

- لقد لاحظت في ملفك أنك فرنسي لحما ودما، وذكرت أنك ربيت في عائلة فرنسية... إني أعلق عليك آمالا عريضة.. وأعتقد أنك ستكون عند حسن ظننا بك.

وفي غمرة أفكار مشتتة، وعواطف واحساسات غامضة، مضطرة، أقلعت به العربة مع جمع من الشبان.

التفت إلى الوراء وألقى نظرة علي القرية، ولما اختفى الكوخ الذي خلف فيه أمه تنوح، راح يتابع المنظر الجميل...النخيل تناطح السماء في شموخ وإباء، الرمل، هذا الفراش الذي يحيط بالواحات الغناء الزاهية..آه ما أروع وأبدع

جمال قريتي يا لهذا المنظر الأخاذ.. لم لم أتمتع بهذا الجمال قبل الآن يا ترى؟ بل لم لم أتمتع بحب أمي قبل الآن ياترى؟ بل لماذا كتب لي أن أخرج من مسقط رأسي، في مثل هذه السن المبكرة؟؟ لماذا لا أكتسب من ثروات قريتي الجميلة إلا كوخا حقيرا؟؟ أهكذا كتب لي أن أمارس وجودي وحياتي؟؟ ترى ماذا تعاني أمي المسكينة في هذه اللحظات بالذات؟؟

وقطع عنه أفكاره هذه صوت أحد الشبان يخاطبه :

- عسكري هوه يا عسكري، لقد خرجنا من جلفة فرارا من الهم، فكيف يليق بنا أن نصطحب ولو مثقال ذرة منه، انس الهم ينسك الهم......

وفعلا بدأ ينسى الهم، وبدأ الهم ينساه بدوره، وانقضت المسافة الطويلة دون أن يشعر بها، فقد تجاوب مع الشبان الذين معه إلى حد أنساه حتى نفسه وأمه.

ومنذ وطئت قدماه" سور الغزلان" والمركز العسكري، انشغل بالحياة الجديدة التي لم يكن يعرف عنها أي شيء سوى تلك البزة التي يرتديها العساكر، والتي سر بها يوم منحت له وارتداها أيما سرور، حتى أنه تمنى طيلة أيام لو أن الجدران كلها مرايا فيظل يتمتع بالنظر إلى نفسه، والحق أنه استطاع أن يتجواب مع تلك الحياة بسهولة، بفظل ثقافته التي وإن كانت ضحلة فإنها مكنته من فهم ما يجري حوله، وعلى الأخص فهم ما يتلقاه من الضباط، من تدريبات وأوامر، عكس بقية زملائه الذين تعرضوا لصعوبات جمة قاسية، رغم ما يمتازون به من ذكاء مفرط، كما أن بلخير كان عند حسن ظن الجندرمة به، فقد صقلت طباعه التي نمتها فيه العجوز الفرنسية العقيم، وازداد سلوكه تحسنا على

مر الأيام، ولم تخف هذه الظاهرة عن الضباط، ولم يدعوها تتطور تلقائيا، فرحوا يشجعونها وينمونها شيئا فشيئا، إلى أن فصلوه عن بقية زملائه الجزائريين، خشية العدوة.....

وسر أيضا بلخير بهذه البادرة الطيبة، وبهذا التمييز المشرف، فأخلص في القيام بعمله وفي خدمة الضباط سواء أكان في المركز أو في بيوتهم، وهكذا انسلخت من حياته الجديدة ستة أشهر.. ستة اشهر كاملة، ولكنها انقضت دون أن يتفطن إلى أن الزمان يسير، وأنه سار مسافة طويلة. هي ستة أشهر، بأيامها ولياليها، لقد انسلخت بسرعة فائقة حتى أن الرسائل التي كتبها لأمه طيلة هذه المدة لم تتجاوز الثلاث.

لقد نسي الهم فنسيه الهم بدوره.

* * *

حدثت حركة غير عادية في المركز، نقل كثير من زملائه إلى حيث لا يدري. وودعه البعض من الضباط الفرنسيين الذين كان يشعر نحوهم بميل وبود وصداقة، فجأة، وكل منهم يسمي له قرية أو مدينة من قرى ومدن الجزائر التي سينتقل إليها، وحاول بلخير أن يدرك سبب هذه التنقلات والتحركات المفاجئة، إلا انه لم يجد إلا أفواها مغلقة عن سر لم يأن أوان اطلاعه عنه بعد.

بيد أنه رغم كل ذلك الكتمان، استطاع أن يطلع على شيء أشبه بالحقيقة، فقد عثر على جريدة " لاديباش" وصدفة وقعت عيناه على عنوان في ركن مغمور لفت انتباهه فراح يقرأ :

"القوات النظامية تشتبك مع عصابة من المتمردين فتبيدها، منذ بدأ المتمردون في تمردهم، أي منذ فاتح نوفمبر الجاري والقوات النظامية تكبدهم الخسائر تلو الخسائر، سواء في الأرواح أو في العتاد الذي لا يتجاوز بنادق الصيد، وقد اشتبكت يوم أمس مع عصابة منهم فأبادتها عن آخرها"... الخ.

تمتم بلخير حين انتهى من تتبع الأخبار بينه وبين نفسه :

- هذا هو السر إذن؟ لكن لماذا يخفونه عني؟؟

وجاءه الجواب سريعا.

في مساء ذالك اليوم بالذات... ناداه القبطان بنفسه، إلي مكتبه، وبعد أن أمره بالجلوس علي مقعد بجانبه قال له :

- بالخير؟؟

- أوامرك قبطاني.

- ماذا تعرف عن التمرد؟..

- لا شيء سوى بعض حوادث قرأتها هذا الصباح في لاديباش.. لم أسمع بالتمرد إلا اليوم.

- شيء حسن، وما رأيك فيه ؟

- في التمرد؟؟؟

- إن المتمردين هؤلاء، هم عصابات من المجرمين الهاربين من العدالة، تحصلوا على أسلحة بدائية مثل بنادق الصيد والخناجر وراحوا يذبحون وينهبون المدنيين المساكين الذين يطلبون من السلطات النظامية بإلحاح أن تحفظ حياتهم وأرزاقهم....

أفهمت؟؟ هذا هو التمرد، لكن الغريب المضحك هو أن العصاة يبررون إجرامهم وعصيانهم بشعار: إلقاء فرنسا وجيوش فرنسا في البحر؟

- بلخير ما رأيك؟

- لقد قالت الجريدة، إن القوات النظامية ما فتئت تكبدهم الخسائر تلو الخسائر، أليس هذا صحيحا؟

- اسمع بلخير. لقد لاحظت منذ اليوم الأول، أنك من طراز خاص، إنك لست من طينة بقية الجزائريين الذين فصلتك عنهم، ومازال هذا رأيي فيك، استمع جيدا إلى ما سأقوله لك، أنا سأرحل عن سور الغزلان عما قريب، ولكنني لم أنسك، بل لقد فكرت في أمرك كثيرا، إنك، بلخير، أول مسلم أرقيه إلى رتبة - سارجان - بل أول مسلم يبلغ هذه الرتبة قبل أن يقضي على الأقل أربع سنوات في الجيش الفرنسي..أتسمع..؟؟

انفجرت أسارير بلخير، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، لا يتذكر قط أن الحياة جادت عنه بمثلها، وشعر بنسيم راحة ضمير يهب عليه، للمرة الأولى، قويا عليلا، أكثر مما كان يتمني ويحلم بأن يهب عليه ذات يوم.. وكان القبطان يلاحظ كل ذالك، وقد شعر بدوره بجذل وسرور لا يقلان عما شعر به بلخير....

وقبل أن ينبس الشاب المغتبط بأية كلفة شكر أردف القبطان :

- أنت ستبقى هنا... ولكن أقترح عليك اقتراحا، أعتقد أنه سيسرك كثيرا.. أتسمع بلخير؟ ما رأيك في الهند الصينية؟ ألم تفكر قط في تقديم مطلب للذهاب إليها؟؟ هنالك فرص، فرص كثيرة بالنسبة لك؟؟؟

لم يجبه بلخير ولم يفكر أن يجيبه، إنما راح يستعيد كلمات قالها له العسكري في نزل العجوز الفرنسية العقيم علي أنها نصيحة متداولة :

"يا ذاهبا للهند الصينية هنالك الحرب فإما أن تعود بأسنان ذهب أو بساقي حطب".

- من يدري؟؟

ألقى هذا السؤال على نفسه، ثم رفع بصره إلى القبطان قائلا بصوت خافت :

- سأجيبكم صباح الغد.

***

عاد بلخير الأسى مرة أخري، وأضحى فريسة للقلق والحيرة اللذين ساوراه يوم قرر أن يلتحق بالجيش الفرنسي، فباع الستين كيلو غرام التي يزنها لمدة أربع سنوات.. واستعد لمغادرة قريته الحبيبة جلفة الجميلة يخلف أمه المسكينة على أمل في العودة ولو كان ضئيلا، فقد هول له من خبروا الحياة العسكرية الأمر ونصحوه بالعدول، ولكن بعد فوات الفوت، بعد أن باع نفسه وانتهى الأمر، بعد أن أصبح تحت رقابة الجندرمة، وتحت تصرفهم وطلبهم، بعد أن ندم ولكن في الوقت الذي لا يكون فيه الندم سوى إبر تخز الفؤاد...

ما أشبه الليلة بالبارحة!

ها هو مرة أخرى يلقي بنفسه، في عالم المجهول!..

ما أشبه الليلة بالبارحة!

هاهو مرة أخرى يتأهب للرحيل، من مكان ألفه وألف الحياة فيه.. ها هو مرة أخري في انتظار السفر.

أقلته يوم غادر جلفة عربة شحن، وخلف وراءه أما تبكي، ومنظر النخيل البديع، والرمل الذهبي، بساط أديم أرضه الحبيبة، وسوار واحات الصحراء الغناء.. وستقله يوم يغادر الجزائر باخرة حربية.. لكن ماذا سيخلف وراءه لا شيء، لا شيء على الإطلاق... لكن؟ ألم يخلف أرضا ينتسب إليها؟ ألم يخلف قوما تربطه بهم شتى الروابط؟ ألم يخلف عالما يعتبر واحدا منه؟ ألم يخلف ريحا تهب عليه، ثم على قريته، تلفح وجهه ثم تواصل مسيرها لتلفح وجه أمه المسكينة ؟ ألم يخلف؟ ألم يخلف؟، أي نعم خلف خلف.. خلف كل شيء عزيز على قلبه، خلف وطنا لا ريب في أنه وطنه...

ما أشبه الليلة بالبارحة....

لم يعرف جمال قريته و تعلقه بها إلا حين آن أن يغادرها ولم يعرف ارتباطه بوطنه إلا حين آن أن يخرج منه، إنه يحب قريته جلفة، الجميلة، إنه يحب وطنه الكبير..

الجزائر....

شغلت رأس بلخير، هذه الأفكار، وأخرى شبيهة بها، إلا أنها غامضة، لم يفقه منها شيئا، ولو أنه يفسرها بالحزن والهم، شغلته أياما وليالي،كانت بحق كالحة مدلهمة، إلي أن كان يوم نودي على اسمه : مساعديه بلخير. وصعد إلى عربة الشحن مع ما يقرب من ثلاثين شابا من بني جلدته، وشعر هذه المرة صادقا، أن هؤلاء الشبان تربطه بهم رابطة قوية، و بالإضافة إلى اشتراك المصير، ووحدة الألم والهم، هذا اللسان الذي ينطق بحروف واحدة، هذه السمات المتشابهة، هذه..، هذه... إنه جزء منهم، جزء من كل لا ينفصم.. ودفعه هذا الشعور إلي التخفيف من وطأة ما يعانون من أحزان وآلام، فكان هو الذي نطق هذه المرة بكلمات،

قيلت له يوم خروجه من جلفة: ـ عسكري، هوه يا عسكري، لقد خرجنا فرارا من الهم فهل يليق بنا أن نحمل معنا ولو مثقال ذرة منه، انس الهم ينساك الهم.

ومن وهران التي قضوا فيها ليلتهم، أقلعت بهم الباخرة الحربية في الصباح الباكر... ومن النافذة، ظل بلخير يتابع النظر إلي المباني و الأشجار، و الشاطئ إلي أن اختفى كل ما على الأرض الحبيبة، ولم يعد يحيط بالباخرة التي تشق عباب الماء شق الأفكار في رؤوس الشبان الراحلين، سوى الزرقة،... وقبل أن يستلقي بلخير إجهادا تساءل :

- هذا الوطن الكبير الثري ما الذي يجعلنا محرومين منه؟؟

***

آه ما أثقلن الأيام و الليالي هاهنا، ما أبطأن سير الزمن في أرض غريبة، ما أشقن الحياة بعيدا عن الأوطان، ما أجفن وأمرن الحياة العسكرية، بالرغم من كل ما هو جديدها هنا ....

آه! متى تحين يا يوم العودة؟ العودة إلي الوطن، وإن هناك ألف هم وهم..آه..آه!...

وهكذا بدأت حياة بلخير منذ وطئت قدماه أرض الهند الصينية، ونقل إلى مركز يبعد عن " سايغون" بنحو عشرين ميلا....

لو لم تضع الحرب أوزارها قبل حلوله بخمسة أشهر، لكان ممكنا أن تكون الحياة علي غير ما هي عليه الآن من الرتابة و الركود، ولشغلته أهوال الحرب وويلاتها عن نفسه، وعن وطنه، ولما وجد الهم الى نفسه سبيلا .. ولربما أراحته دفعة واحدة من عناء حياته ومن معضلات وجوده.. هذه الحياة وهذا الوجود

اللذان لا يقومان على أي أساس حتى أن باع نفسه وتنصل من مسئوليتها... ولربما فقد إحدى ساقيه، أو كلتيهما معا، وفي كلتا الحالتين فإنه هو الرابح...

أي نعم هو الرابح، فسيطلق سراحه، مع مرتب مالي يكفل له العيش ما تبقي من عمره.. ولكن..لكن، ها هي الحرب انتهت، وها هي الحياة ثقيلة جدا، جدا.. لا تطاق أي لا تطاق...أما أسنان الذهب فإنه لن يعود بها، حتى هي، رمز العار..

إن الذين عادوا بأسنان الذهب هم أولئك الذين نهبوا وسرقوا، زمن الحرب، والحرب انتهت وعلى فرض أنها لم تنته، هل يستطيع أن ينهب و يسرق هو الأخر؟؟ أبدا لا يستطيع!..

ما العمل إذن..؟

كثير هم الذين يركنون إلى الفرار، فهل يستطيع هو بدوره أن يفر؟ ولا هذه أيضا. وألف مرة كلا. لن يتسامح مع نفسه حتى بالتفكير، مجرد التفكير، في هذا الأمر، لقد باع نفسه فليتحمل عواقب هذه الصفقة المشؤومة، ليتحملها بالصبر والجلد دون الركون حتى إلي الخمر التي يبغضها .. ليتحمل، ولعن الله العجوز العقيم التي كانت السبب...

وصبر ثم صبر، وتجلد، ثم تجلد، شهرا .. اثنين..ثلاثة.. أربعة..خمسة..ستة ... سبعة.. ثمانية.. تسعة.. تسعة أشهر كاملة... مائتان و ثمنون يوما.... مائتان وثمانون ليلة تسعة أشهر كاملة من التبرم و القلق و الضيق والسأم والضجر..

إنها تسع سنوات في الواقع....

إن من عاش ولو جزءا من عمره مغتربا هو الذي يدرك ما عناه الشاب.. السارجان الطفل بلخير.. ويدرك أيضا مشاعره وعواطفه يوم تلقى النبأ السار..

نبأ العودة العودة إلى الوطن.. إلى حيث القوم قومه، والأرض أرضه، و الريح التي تهب عليه هي التي تهب على قريته، وعلى من يحب.

آه أيها المغتربون..

يا من خلفتم أوطانكم العزيزة...وقلوب أحباء تتضوع شوقا إليكم..آه أيها المغتربون كم هو جميل، وكم هو مسر نبأ العودة...

ذلك ما كان يلهج به لسان بلخير، منذ تلقى النبأ إلى اللحظة التي أقلعت فيها الباخرة..تحمله.. تحمل قطعة من السعادة تتراقص واثبة.. فتكاد تظفر منها لتتبعثر في عرض اليم، فتحوله بدوره إلى يم تجري فيه السعادة بدل المياه...

وللمرة الأولى يسافر بلخير دون أن يلتفت إلى الوراء .

رويدا، رويدا، بدأت الباخرة تدنو من الأرض الحبيبة..وبدأ الشاطئ الجميل يلوح من وراء الأفق البعيد، يدغدغ الآمال العذبة، ويداعب القلوب المكتئبة، لتدب فيها الحياة، فيشتد خفقانها بعد طول سهوم.

- وهران. وهران..هذه وهران..آه، كم هي جميلة وهران، لقد عدنا..عدنا...

قال بلخير في سره، وقال آخرون بأعلى أصواتهم، بينما هتف البعض الآخر :

- أحباءنا .. ها قد كتب لنا أن نتلاقى بعد طول التنائي..ها نحن قد عدنا بعد سنوات من النوى.

أرست السفينة، في حين كانت الساعة الثامنة ونصف، فظن الجميع، أن ليلتهم تلك سيقضونها أحرار في وهران...

فراح كل منهم يفكر في برنامج تقضية أوقاته.. هذا يفكر في الحانات وذاك في دور البغاء والآخر يفكر في من سيختاره للذهاب معه لأنه لا يعرف المدينة..

أما بلخير فإنه فكر هو أيضا في كل هذه الأمور، باستثناء الخمر التي يبغضها بغضا شديدا.... كما أنه فكر في أن يكتب رسالة إلى أمه، ويوجه لها حوالة بقدر مالي تستعين به حتى يعود في إيجازة فيرتب أمورها وينظم أولا وقبل كل شيء مسكنها، فمن يدري أن الكوخ الحقير الذي خلفها فيه لم ينهر بعد، إنه على وشك الانهيار..؟

وبينما هم كذلك لا يفكرون إلا في كيفية قضاء الليلة في وهران، اذ بالأمر يصدر إليهم بأن لا يغادروا الباخرة حتى يحدث ما يخالف ذلك.

بدأت آمالهم تنهار كلما طال مكوثهم في الباخرة... وكثرت تساؤلاتهم عن الأسباب، إلا أن شابا كان طيلة الوقت مطرقا لا يشارك في الكلام، طيبا كـــان أو بذيئا.. انبرى يجيب عن تساؤلاتهم قائلا :

أنسيتم أن بلادنا في حرب؟ ألم يبلغكم شيء عن الثورة التي يقوم بها شعبنا؟ إنها مثل تلك التي كنا نحارب الصينيين من أجلها.

- ماذا؟ ماذا؟ أتقول ؟؟ إنها ثورة؟؟ عجبا..

تعالت أصوات الجنود تردد هذا السؤال، ولما هدأت ضحتهم، وانقطع صخبهم، التفت بلخير إلى الشاب الذي أثارهما وألقى هذا السؤال :

- ألم يقولوا أنه، مجرد تمرد، وعصيان، جماعة من الخارجين عن القانون؟؟؟

- من الذين يقولون هذا الكلام؟؟ الضباط؟ لقد كانوا يقولون مثل هذا الكلام عن الثورة في الهند الصينية قبل كارثة "ديان بيان فو.." لقد عشت ما يزيد عن ست سنوات غمار هذه الحرب أو هذا التمرد وهذا العصيان كما يحلو للضباط الفرنسيين أن يقولوا إبان الكارثة الماحقة...إن شعبنا ثائر، وسيعلم الضباط كيف ينطقون باسم الثورة.

في تلك اللحظة بالذات، حدث ما يخالف الأمر الأول، فاستبشر الجنود المتعطشون إلى ليلة يقضونها أحرارا يتصرفون فيها كما يحلو لهم، وجزموا أن ساعة الفرج قد دقت حتى أن البعض منهم هتف من أعماق قلبه :

- استعدي وهران الجميلة..

وإن هي إلا لحظات قلائل حتى كان الجميع مشحونين في العربات التي انطلقت بهم تحرسها الدبابات المصفحة إلى حيث لا يدرون؟؟

آه، ما أشبع أن تخيب أمل العسكري في أوقات راحة..

***

بالرغم من أن بلخير، لم يعد إلى جلفة، ويرى أمه، فإنه أبل مما كان يشعر به من ضيق وكرب وضجر، حين كانت تفصله عن الوطن الحبيب محيطات وبحار، وآلاف الأميال..

فقضى ما يقرب من الشهر في قلعة تلماس العسكرية هادئا مطمئنا في هدنة مع الأفكار التي تحمل له الأزمات.. فلم يفكر في شيء واضح يمكن أن ينغص عليه حياته ولو أنه في بعض الأحيان، وحين يخلو إلى نفسه فقط يستعيد كلمات الشاب الذي لم يره منذ نزل الباخرة، عن الحرب التي تجري في الجزائر، هذه الحرب التي يقال إنها تمرد وعصيان خارجين عن القانون ألم ينته هؤولاء الخارجون عن القانون بعد؟ ألم يقولوا أن أسلحتهم بدائية، بنادق صيد وخناجر؟؟ كم عدد هؤلاء الخارجين عن القانون؟؟ وكيف عجزت السلطات النظامية عن إبادتهم وهم لا يملكون إلا بنادق الصيد؟؟

عجيب...

ومع أنه طال به هذا التفكير، ولاك هذه الأفكار عينها أكثر من ليلة، فإنه لم يخطر لبلخير قط أن يتخذ موقفا من هذه الحرب وهذا التمرد مثل الشاب الذي لم يعد يشك في أن كلامه ذاك بلغ إلى علم الضباط فألقي عليه القبض.. إنه لم يظهر منذ تلك الليلة، ولم يفته وهو الذكي أن يدرك أن هناك رقابة مشددة على كل الجنود المسلمين، ومعنى ذالك أنه لا يوثق بهم من طرف الذين يعملون في صفوفهم الفرنسيين؟؟؟

ومع ذالك، لم يتخذ أي قرار، بل لم يشعر بأية أزمة من تلك الأزمات التي تسبق دائما اتخاذ القرار.. أي قرار.. حتى حين نقل إلى (الحراش) وكلف باصطحاب الفرقة التي تحرس قوافل نقل البترول من حاسي مسعود.

بيد أنه شعر بأن حراسة محكمة مضروبة حوله من طرف الجنود الفرنسيين الذين لا عمل لهم كما يبدو الا حراسة الجنود الجزائريين، الذين يحرسون بدورهم القوافل..من الجزائريين.؟.

انقضت ثلاث سنوات عن اليوم الذي باع فيه نفسه، ولم يبق على استرجاع ملكية الستين كيلو غرام التي يزنها إلا سنة... سنة واحدة... حسنا. ليبصر إذن، وليفكر في كثير من الأمور، حين يعود إلى الحياة المدنية.. وقد آن له أن يعود.. سنة واحدة ستنقضي في طرفة عين، ودون أن يشعر بها، إلا أن العجوز المسكينة.. أمه التي أكثرت من الإلحاح عليه في رسائلها بأن يحضر لتراه قبل أن يوافيها الأجل المحتوم - كما قالت في رسالتها الأخيرة.

لماذا لا يقدم طلبا في إجازة، ولو قصيرة الأمد؟ يطل فيها علي العجوز.؟

وحين قدم الطلب جاءه الجواب بعد أسبوع..

لقد تقرر أن ينقل إلى فرنسا..

وان هي إلا أيام قلائل، حتى أقلعت به باخرة حربية مع جمع من إخوانه المجندين والمتطوعين الجزائريين؟

لم يشعر بلخير بالاستياء هذه المرة، ولم يعتوره أي حزن أو أسي، ولم يطل حتى التحديق في الشاطئ حين أقلعت به الباخرة مثل المرات السابقة.

ولم يركبه الهم هذه المرة لا هو ولا من كان معه حتى يخطر له أن يقول يواسيهم : عسكري، هوه، يا عسكري لقد خرجنا فرارا من الهم، فهل يليق بنا أن نصطحب ولو مثقال ذرة منه؟ انس الهم ينسك الهم.

إنما بات علي يقين من أن نقلتهم هذه كانت لغاية.. غاية واضحة وضوح الشمس.. المقصود من إبعادنا هو إبعاد رؤوسنا، عن أفكار الثورة.. هذا هو جزاؤك على إخلاصك يا بلخير.. النفي.. النفي، والإبعاد.. إنك في نظرهم لست إلا عدوا، شكرا، شكرا يا فرنسا.. أنا أيضا عدو؟؟ أنت أيضا عدوا وسنرى ..

وأذكي الروح الجديدة التي سكنت بلخير، ونمى أفكاره هذه التي تجمعت لديه شيئا فشيئا منذ اقترحت عليه العجوز الفرنسية العقيم أن يتجند في الجيش الفرنسي.. ما وجده أمامه في فرنسا من روح لدى كل من يتصل به من الجزائريين، قيل له إنها الوطنية، التي فرضت نفسها حتى داخل مراكز فرنسا العسكرية..

فقد بات الجنود الجزائريون، لا حديث لهم إلا عن الثورة والثوار..وكل منهم يقسم علي الإلتحاف بالجبل حالما يعود إلى الجزائر وكثر بينهم تداول المجلات والصحف التي تتحدث عن الثورة، وتورد أخبارها بالتفصيل.. بل وكثر النقاش

بينهم وبين المدنيين الفرنسيين الذين يلتقون بهم كل يوم أحد، حول الثورة، وحول حق الشعب الجزائري في أن يثور و يطالب باسترجاع ما اغتصب منه من حرية وكرامة.

ووجد بلخير جوابا لأسئلة طرحها على نفسه منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات : لماذا كتب لي أن أخرج من مسقط رأسي في هذه السن المبكرة؟ لماذا لا أكسب من ثروات قريتي الجميلة إلا كوخا حقيرا، أهكذا كتب أن أمارس وجودي؟ هذا الوطن الكبير الثري، ما الذي يحرمنا منه؟؟

وجد بلخير الجواب : الاستعمار هو الذي طردني من جلفة الجميلة وهو الذي حرمني من ثرواتها وحرم علي وعلى الآلاف من أمثالي وطني الكبير؟ الجزائر. الجزائر التي أقسمت على الالتحاق بجبالها حالما أعود إليها.

لم تخف هذه الظاهرة عن الضباط الفرنسيين، فلم يجدوا أية طريقة لمقاومة هذا التيار المكتسح.. سجنوا البعض لكنهم لم يفعلوا سوى إثارة المشاكل والشغب من حيث لا يقصدون.. طردوا البعض إلا أن ذالك لم يجد فتيلا أيضا.. لأن المسألة ليست مسألة أشخاص إنما هي مسألة روح، مسألة عقلية..مسألة وعي.

فاضطر الكومندان " ستيلان" إلى أن يجمعهم ذات يوم ويقول من جملة ما قاله في خطابه الطويل الذيل:

ـ .. أعرف ما في رؤوسكم، أعرف جحودكم، أعرف عواطفكم، أنتم ثوار في قلب المراكز العسكرية الفرنسية..أعرف ذالك جيدا لكن الذي أنصحكم به، هو أن تحترموا غيركم.. لكم الحق والحرية في اختيار أفكاركم، إنما ليس لكم الحرية ولا الحق في جرح عواطف غيركم....

، لا تضطرونا إلى إلقاء القبض عليكم جميعا.. احترموا اللباس الذي ترتدونه، وحين تنزعونه، وتستبدلوه بأي لباس تشاءون، افعلوا وقولوا ما يحلو لكم.. ما يخطر لكم، ما ترونه لائقا.

ولم يبق لبلخير حين نقل إلى بروطان سوى شهر واحد، ثلاثين يوما فقط، ثم يسترجع حريته، التي أصبح يدرك تمام الإدراك قيمتها..ويعرف جيدا المعرفة ماذا سيفعل بها، ثلاثون يوما فقط، ثم ينزع إلى الأبد اللباس الذي يرتديه وطلب منه احترامه ويستبدله بلباس آخر يعرف من أي نوع هو..

فقضى ذلك الشهر مدللا من طرف الضباط الفرنسيين، عكس بقية زملائه الذين سخروا إلى القيام بالأعمال الشاقة، وكان يعرف لماذا يدلله الفرنسيون..إذ لا تكاد تمر ساعة حتى يعرض عليه أحدهم أن يجدد عقد تطوعه.. أن يبيع نفسه مرة أخرى..أن لا ينزع البزة التي يبغضها مدة سنوات أخرى..؟؟

***

ما أجمل العودة.. ما أجمل الحرية..

ذلك ما ظل يتردد فقط في خواطر بلخير منذ امتطى الباخرة عائدا إلى الوطن الحبيب .. إلى جلفة العزيزة إلى أمه الحبيسة ..

وها قد عاد، ها هو يشق أنهج القرية، إنه يود لو يتقدم إلى كل ما يعترضه فيحتظنه ويقبله، بل ما الذي يمنع من تقبيل الحجارة والنخيل والتمرغ في البساط الذهبي الذي يكسو أديم قريته ..ألم يكن يتطلع إلى هذه اللحظات منذ أربع سنوات ؟.؟ لولا الحياء لفعل ذلك ..

لكن.. لكن..

ها قد أوشك أن يلتقي بأمه، أية عواطف هذه التي تعتريه أية احساسات هذه التي تتأجج في صدره؟ أية حرائق هذه التي تضطرم في دمائه ؟.؟

إنه مغترب عائد .. عائد إلى أمه..

ومنذ صباح الغد ألفى نفسه محطة رقابة مشددة من طرف الجندرمة الذين يتفقدونه صباح مساء .. عارضين عليه إما العودة إلى الجندية وإما الالتحاق بالحركة ..

ومنذ الغد اصطدم بالفقر المدقع الذي يتخبط فيه أبناء جلدته .. والمجاعة التي يتضور منها قومه باستثناء من كان منهم في الحركة، أو بعض الأثرياء الذين لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد ..

ومنذ الغد أيضا تجلى له الجو المكهرب الذي تعيش فيه جلفة .. العسكريون أكثر من المدنيين.. رجال الحركة يسومون إخوانهم مر العذاب والهوان، وينكلون بهم سوء التنكيل .. الحديث بين الناس لا يجري إلا همسا.. الخوف والرعب يسودان الجميع، عساكر ومدنيين، الثقة تكاد تكون منعدمة..

أي وجود هذا؟؟ وأية حياة هذه؟ أي معنى للبقاء ها هنا أي واقع هذا الذي كان لا يتصور؟

ولم ينس القسم الذي أقسمه، والعهد الذي أخذه على نفسه.. لم ينس ذلك، لم ينس.. بل إن كل ما يحيط به يذكره، ويصرخ فيه.. الجبل، الجبل، الثورة، الثورة..

وفي الليل حين ضمه الكوخ، واستلقى في الفراش إلى جنب أمه العجوز، سألها بصوت خافت عما تعرف عن المجاهدين.. فحدثته طويلا بما تعرف وما لا تعرف، مثل انشقاق الأرض كلما حاصر العدو المجاهدين ودخولهم إلى القرى

والمدن في صور لأكباش أو غيرها من الحيوانات، وإلا كيف يستطعون أن يعدموا في وضح النهار ثم يختفون فلا يعثر لهم على أثر؟؟ أما أسلحتهم فإنها على كل شكل ولون ولديهم حتى الطائرات فقد سقطت في إحدى المعارك طائرة في عرض دوار، قال العسكر إنها للمجاهدين..

ولما انتهت من كلامها الذي ظلت تنتظر عودته حتى تحدثه به فليس هو وحده الذي رأى وسمع الغرائب والعجائب في أرض الهند الصينية.. قال لها بصوت خافت هادئ :

- أمي، يجب أن ألتحق بالثوار ..

ودون أن يترك لها فرصة لتقاطعه أردف :

- وإلا أن ألتحق بالحركة..

- لعنة الله عليهم في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى..

بادرت أمه حالما تلفظ بهذا الاسم الذي يعرف كل جزائري كم هو بغيض.. الحركة..

فواصل كلامه قائلا :

- أو أن أعود إلى صفوف فرنسا، لأحارب المجاهدين..

هذه الحلول الثلاثة، لابد من أحدها؟ ما رأيك يا أمي؟.؟

فهمته العجوز، فهمته جيدا، إلا أنه شق عليها أن تعطيه رأيها، أن تقول له : اذهب عني، اهجرني، سواء إلى الجبل أو إلي الحركة البغيضة أو إلى صفوف فرنسا، لتقاتل إخوانك المجاهدين.. فآثرت الصمت وتركت له الخيار تركت مسؤولية الفراق تقع على كاهله، حتى لا يقول ذات يوم، لقد قذفته بنفسي.. تركت له الخيار وقد اختار بعد .

اختار السير في الدرب الذي سلكه شعبه البطل..

بيد أن المشكل لا ينحصر في هذا النطاق، نطاق الاختيار..

إنما يتمثل في كيفية البدء في الدرب كيف يصل إلى الثوار ؟

ومن أين يستطيع اللحاق بهم. وانه لمشكل جد عويص..

وجد عسير.. أكثر مما يتصور..

فمن ذا الذي سيثق بك يا بلخير.. أنت الذي لم تعد إلا أمس من الجندية ؟ الجندية التي بعت نفسك فيها بيعا ؟

ومن ذا الذي يمكن لك أن تثق فيه أنت يا بلخير الذي لا تعرف عن الحياة في بلادك شيئا؟

وفوق هذا وذاك، كيف تتخلص عن الرقابة المضروبة حولك ؟

ألقى بلخير هذه الأسئلة على نفسه، وقبل أن يجد أي جواب، حاول أن ينال قسطا من الكرى الذي يثق في أنه لن يزوره ليلتها إلا بعد أن يعيش مرارة عمر كامل...

* * *

وفي 19 ديسمبر 1959 أي بعد عودته بأسبوع إلى جلفة التي طالما حلم بالعيش بين أحضانها، وتاق إلى العودة إليها كان بلخير، في مركز (عين وسار) العسكري يرتدي البزة العسكرية، والحذاء الخشن، وعلى كتفيه الخارقتان اللتان ترمزان إلى رتبته العسكرية ..سارجان.

لقد باع نفسه مرة أخرى... لمدة سنتين..

وها هو في المركز العسكري يقوم بواجباته، كأخلص جندي، بل كأخلص ضابط، بيد أنه مع كل أسق لا تتمثل واجباته، إلا في الخروج مع الدورية التي تجوب القرية بين آونة وأخرى.

هذا هو كل ما يعهد إليه القيام به، هذا هو عمله الذي يدرك المغزى الذي يرمي إليه من ورائه الضباط.. أنه يفهم جيدا العقلية التي يفكر بها الفرنسيون.. ألم يقض زهرة عمره بينهم؟.؟ لكن ماذا يسعه أن يفعل ؟ ..يعرف أنه حين يخرج مع الدورية يجوب القرية .. إنما يرمز إلى أن الجزائريين أيضا في السلطات النظامية، وأن الجزائريين يناهض قسم عظيم منهم التمرد والعصيان.. لكن ليس في وسعه وقد باع نفسه عن طواعية إلا أن يمتثل لكل الأوامر ويقوم بكل ما يطلب منه.. ليس في وسعه إلا - وفي سره فقط - أن يفكر كيفما بدا له، وان يسخر ممن يشاء حتى من نفسه.. أي من نفسه ..

وليسخر، ليسخر، ليملأ الدنيا سخرية، دنيا سره، دنيا ما تحت الغطاء، حين ينام ليسخر من هؤلاء الذين يتباهون به، بوجوده بينهم في صفهم، ولكنهم لا يستطيعون إلا أن يستعرضوا به فقط ..أما أن يمنحوه السلاح ويدفعوه إلى ساحة الوغى ليكون في صفهم، فلا. وأن يرقوه في رتبته التي جمدت منذ أربع سنوات، فلا، أيضا.

لكن ليس بعد السخرية أي عمل، على الإطلاق.. انه محاط برقابة يقظة.. ليس حوله إلا الجنود الفرنسيون فمهملا..، مهملا، وليتحين الفرص.

ومر ربع المدة التي باع فيها نفسه، ستة أشهر كاملة انسلخت دونه، أن يحدث جديد.. دون أن تواتي الفرصة؟

يا لهذه الفرصة التي طال ترقبها..

كيف تواتي الفرص يا ترى؟ أتخلق من تلقاء نفسها لكي تسمى فرصا؟ نعم، ولكن إذا لم توات ولم تخلق من تلقاء نفسها هل نظل نترقبها فقط؟؟ قد نترقبها سنوات وسنوات، ولكن دون جدوى؟ إذن؟

إذن علي المرء إن يخلق الفرص خلقا.. عليك يا بلخير، أن تبحث كيف تخلق فرصة تنفذ فيها إرادتك، ولو كلفك ذلك ما كلفك.. أي نعم.

ولكن كيف؟

وتحولت السخرية من الضباط إلى السخرية من نفسه، من غباوته، من تسرعه في بيع نفسه، من عجزه عن خلق فرصة.. ثم تحولت إلى التبرم من نفسه، من وجوده، من حياته، من القيود التي كبل بها نفسه.. وشعر بأن أيامه ولياليه ما تنفك تشدف وتدلهم.. وضاقت به نفسه، فلم يعد يرى إلا الحلول الانتحارية.. حلول اليأس القاتل..فتارة يخطر له أن ينهض في الليل ويحمل البندقية ويتسلل إلى الباب فان اعترض سبيله معترض تخلص منه ومن نفسه، هذه العاجزة الخائرة المتداعية.. وتارة يخطر له أن يلتف إلى من معه في الدورية ويطلق عليهم النار ثم يطلق ساقية للريح، فان نجا فحبذا وإلا فالراحة الأبدية أولى من وجود لا ينطوي إلا على العدم.. وتارة يفكر في إن يرتدي لباس ضابط من الضباط الكبار، ثم يمتطي عربة ويفر، إلى الجبل.. الدرب الذي اختاره شعبه فاختاره هو بدوره عن وعي، وعن إدراك..وبينما هو كذالك يتخبط في دياجي كالحات، لا أمل في نور يومض وفي بصيص أمل يشرق، حتى حلول اليأس لم تتجاوز نطاق رأسه، نطاق سره...... بينما هو كذالك إذ بالمعجزة تقع :

نعم وقعت المعجزة فجأة.....

فقد نودي على اسمه وأعلم إنه تقررت نقلته إلى "بوحجار" وأنه سينقل عما قريب..

أسرع بلخير إلى الخريطة، ووقف أمامها يتأمل، باحثا عن موقع بوحجار، وبعد برهة تمتم :

هذا الشرق، آه. هذه سوق أهراس شمالها قليلا، قليلا، مع هذه السلسلة، من جبال الشامخة، سلسة الأطلس الأشم.. يا لهذه الجبال كم هي كثيفة، كم هي كبيرة،..ترى كم يوجد فيها من الثوار؟..

ثم هتف من أعماقه :

- بو حجار...بوحجار... ياللفرصة

***

وهناك بدت المهمة أول الأمر شاقة الى حد الاستحالة، إنما هامة حقا ولكنها شاقة.

انشدح بلخير على الفراش: تبن عليه بساط قطني رث..لاغير في الليلة الثانية من وصوله الى مركز بوحجار وراح يفكر: المسلمون هنا كثيرون جدا، كيف سمح لهم أن يجتمعوا بهذه الصفة.؟ أم هل أنهم من الموثوق فيهم، من بائعي ضمائرهم، من الخونة الميؤوس منهم؟ لكن أنا!؟! كلا، كلا، قد أكون من الموثوق بهم من بائعي ضمائرهم، في نظر الفرنسيين، حتى في نظر البعض من إخواني.. ..لكن أنا؟.!. هل أنا كذلك.؟. لا، لا،.. ربما أرسلوا من عين وسار الى جلفة يسألون عن ماضي فوجوده كما يشتهون، فأرسلوني الى بوحجار على أني من الموثوق فيهم... من يدري؟ وكذلك الشأن بالنسبة لزملائي،... إلا أنه إذا كان الامر كذلك فإنني سأنجح في مهمتي...

كم هي شاقة هذه المهمة...

إن الفرار سهل جدا، ولكن هل لفراري وحدي معنى لم لا يفر معي هؤلاء الجنود؟ ما الذي يمنعهم؟ ألم يفكروا قط في هذا الأمر يا ترى؟ من يدري؟؟ إن

ما يجعل مهمتي شاقة جهل أجوبة هذه الأسئلة..فإن بحثت عنها بين زملائي قد تكون هي رميي بالرصاص من طرف الفرنسيين، أو هي ارتياب زملائي في أمري.

إنني شخصيا لا أستطيع أن أمنح ثقتي لأي كان، فكيف أطلب من غيري أن يمنح ثقته؟ إنني واحد منهم، بائع نفسه، متطوع، في الجيش الفرنسي في ظروف كالحة بالنسبة لشعبه.

لقد مرت أربع سنوات كاملة على الثورة، دون أن ألتحق بها في حين أن فرار إخواني يتواصل منذ البدء.. إن الشاب الذي حدثنا عن الثورة في الباخرة ليلة حللنا بوهران عائدين من الهند الصينية لا أخاله إلا أنه التحق بالثورة أثناء تلك الليلة نفسها..أجل، وما كلامه ذاك إلا عرضا للفرار لمن يفكر فيه، يالي من غبي وإلا كنت الآن إلى جانبه..لكن آنذاك لم أكن أفهم شيئا..يرمونني بالذكاء، ولكنني عكس ذلك، عكس ما يتوهمون..غبي، غبي.. أربع سنوات كاملة لم أستطع أن أفر فيها..

يجب أن أفر، ينبغي أن يتم ذلك في أقرب فرصة، كلا، إنما في أقرب وقت وبصفة تبقى تاريخا و درسا للمترددين.

نعم ألف مرة..نعم

ورويدا رويدا، تسلل الكرى الى بلخير، فانتشله مما يعاني من صخب الافكار، المضطربة اضطراب الموج في يوم عاصف.

لقد أوشكت، أوشكت يا بلخير على النجاح، النجاح الباهر، لم تبق إلا أيام قلائل، ويتم كل شيء..

مرحى، مرحى، نحن الآن عشرون، على فكرة واحدة، والبرنامج مسطر، لم يبق إلا التنفيذ، غدا، بعدغد، على أية حال، عما قريب..

كان ذلك كل ما يجول بخواطر الشاب بعد نصف شهر من استقراره في بوحجار، فقد استطاع أن يكتشف خبايا صدور زملائه، ويكشف لهم بدوره عما أقر العزم عليه..

إلا أنه لم يكد ذات يوم أن يختلي بأحد زملائه الذي قال له :

- بلخير، متى.؟.

- يجب أن لا نتسرع، صبرا جميلا.

- يكفي ما صبرنا، قل لي ماذا ننتظر؟ ألا نخشى انكشاف الامر إن طال تلكؤنا؟؟

- ماذا تريد أن نفعل؟ لقد إتفقنا على أن يتم الأمر أثناء خروجنا مع القافلة، في إحدى العمليات، ولكن أنت ترى أن القافلة لم تخرج بعد، و بمعنى أوضح، لم لم يصادف أن خرجنا جميعا مع بعضنا فكل مرة لا بد أن يتخلف البعض. أعتقد أنه ينبغي تغيير البرنامج من الأساس، أن نفكر في طريقة أخرى : نسف المركز مثلا، وقتل من به .. ما رأيك؟

- إنها فكرة رائعة، يا لها من فكرة، لم لم نفكر في هذا من قبل اليوم؟ أنا من جانبي أقتسم معك هذا الرأي، وأظن أن الاخوان سيريدونها، المهم هو أن نسرع قبل أن يتسرب اليأس و الشك إلى نفوسنا،... قبل أن يرتاب بعضنا فيك..

- ماذا تقول؟ أن يرتاب بعضكم في ؟ عجبا.

ما دام الأمر كذلك، ينبغي أن ننفذ برامجنا الليلة، الليلة بالذات..وسأقول لكم فيما بعد عن كيفية نسف المركز، و الفرار، الى غير ذلك، استعدوا، يجب أن يبرهن كل أحد على نواياه، وعلى مشاعره الوطنية بالفعل، لا بالقول هذا أمر معقول جدا بل هذا هو الواجب، ينبغي أن لا نتسامح مع أصحاب النوايا الطيبة،

مع الوطنيين بالنيات.. وأن لا ننخدع بكلامهم وأحلامهم قط.. العمل. ليكن ذلك هو شعارنا جميعا، البرهان ليكن ذلك هو كلمة السر بيننا.

لم يكد بلخير و زميله ينتهيان إلى هذا الحد، حتى انتهى إلى مسمعهما هذا النداء :

- مساعدية بلخير؟ ؟ مساعدية بلخير؟

- حاضر

أجاب بلخير ثم أسرع الى مصدر النداء، حيث اعلم بأنه نظرا الى قلة الاطارات في المراكز الاخرى ونظرا الى إخلاصه تقررت نقلته الى مركز آخر.؟...

وقع الخبر خبر النقلة من نفس بلخير، وقع الصاعقة، حتى أنه لم يستطع أن يخفي ما استولى عليه من استياء و لم يتمالك من القول، في شبه ذهول :

- متى؟..؟

- ما بك بلخير، ما الذي دهاك؟.؟

سأله الضابط في مكر، فاستفاق من دهوله وأجابه :

-أقول لك الحقيقة..

- أية حقيقة.؟.

- إنني غير مسرور بهذه النقلة، لقد ألفتكم، و لا أظن أنني سأجد أمامي مثل هذا الجو، إنني مستاء لفراقكم.

- أوف، ستجد أمامك دائما من يحبونك. إن ملفك أنظف ملف لجزائري وقع بين يدي حتى الآن...

- متى ستتم نقلتي.؟.

- الآن..

خرج بلخير من لدن الضابط الذي بلغ إليه الأمر المشؤوم، مكتئبا وفي طريقه الى قاعة النوم لإحضار حقيبته تأهبا للرحيل، إلتقى بزميله الذي كان يتحدث معه قبل لحظة عن نسف المركز و الفرار، فبادره :

- ما الذي يريدونه عندك ؟

- ما هذه اللهجة التي تخاطبني بها؟..

- لأن الحقيقة التي تخفيها تجلت لكل أحد...

- أية حقيقة؟ لقد استدعوني ليبلغوا إلي أمر النقلة حالا، أية حقيقة؟؟

- أيها العميل..

- أتقولها.؟.ألم نتعاهد؟ من الذي ألقى في رؤوسكم فكرة الفرار.؟. هيا، أتريدون أن نخرج الآن؟

- ابحث عن ضحايا آخرين، أيها العميل . أيها الخائن.

قالها زميله جافة صريحة، ثم مر في سبيل حاله، كأن شيئا لم يكن..

***

بعد أربعة أيام قضاها بلخير في مركز (هنشير الحديد) يردد في فكره :

- ما أشبه الليلة بالبارحة.

ها قد انهار كل شيء، كل ما بنيناه، كل ما بنيته.

ها قد أصبح لزاما علي أن أبدأ من جديد. كما لو أني البارحة فقط حللت بمركز عين وسار، أو بمركز بوحجار، كل ما مشيته يتحتم علي أن أرجع فأمشيه، وكل ما قاسيته، يتحتم علي أن أرجع فأقاسيه..

ما أشبه الليلة بالبارحة، ولكن لست أدري كيف ستكون النهاية هذه المرة؟.؟ وما ستكون عليه النتيجة؟ أهي النجاح أم الفشل الذريع؟

لا،لا، لن أفشل هذه المرة.. فقد تعلمت أشياء كثيرة.. وفي مساء اليوم الرابع، طلب الكولونيل الكورسيكي بلخير، وحين مثل بين يديه فحصه بعينيه الضيقتين ثم أمره بالجلوس قربه وبادره :

- مساعديه بلخير.؟.

- أوامركم كولونيل.

- أتعرف لماذا نقلت الى هنا، أم لا؟.

- كلا!؟

- حسنا، لقد فر من المركز الذي كنت به، تسعة عشر جنديا، أولئك هم الذين وشوا بك واتهموك بأنك تفكر في الفرار، لقد تخلصوا منك بهذه الطريقة، أفهمت؟ إنك تحمل ملاحظات حسنة من جميع الضباط الذين كنت معهم حتى من ظابط المركز الأخير الذي جئت منه، إنما أبعدوك فقط لكي يعتبر بك غيرك.. مهما يكن فأنا مسرور جدا بوجودك هنا.. وأشكرك باسم فرنسا على الخدمات التي قدمتها.. وأخيرك بين الذهاب الى خط شال أو الى خط موريس؟

فكر بلخير قليلا ثم قال :

- أريد ان أذهب حيث الحرب متفاقمة، حيث أستطيع أن أقوم بعمل حقيقي..

- خط شال إذن .. سأرسلك الى السرية السادسة، شكرا بلخير.

تلقى بلخير الشكر، ثم غادر مكتب الكولونيل وهو يتمتم :

- لقد غدروا بي، منحتهم ثقتي ولكنهم هزأوا بي، سخروا مني، رباه..يا لهذه القساوة، يا لهذا الدرس، يعلِم المرء غيره شيئا، لكي ينقلب ضده، ما الذي علمتهم أنا، أقل شيء علمتهم إياه هو كيف يفكرون في الالتحاق بالثورة ولكنهم تخلصوا مني ثم التحقوا..عجيبة..ترى ما الذي دفعهم الى إساءة الظن بـــي.؟. ما بدا لهم من تردد بلا شك.. لكني في الحقيقة لم أتردد، إنما فقط، كنت أهيء قاصمة للعدو، علمتهم كيف يمحي العار، فالصقوا بي العار..لقد فهمت انهم ليسوا ثوريين كما ينبغي، فقط تيقظت مشاعرهم الوطنية، فانتفظوا. الثورة شيء والانتفاظة شيء آخر.

الثورة هي التفكير والسلوك معا، أما الانتفاظة فهي سلوك اندفاعي أحمق لاغير.. الثوري هو من يستطيع أن يعرف أخاه مهما كانت الظروف.. الثوري هو من لا ينخدع بمجرد الوهم..

ترى كيف كان فرارهم.؟.قد ألتقي بهم ذات يوم فأعرف الحقيقة، ويعرفون أيضا الحقيقة..اللهم عجل بلقائنا.

***

ثم التحاق بلخير بالسرية السادسة التي يقودها القبطان (دى فيلان)، وفي اليوم الاول من التحاقه، طلبه القبطان وبعد أن رحب به وأكد له سروره، بأن يكون في سريته مخلص مثل بلخير أضاف :

- سأكون فصيلة من المسلمين فقط، بقيادة السوليطنان، بيرتي، و مساعدتك أنت.. إن لي الثقة المطلقة في إخلاصك بلخير، خرج بلخير مسرورا جذلان، إنه

المسلم الوحيد من ضمن إطارات السرية كلها، ولو أن رتبته لم تتغير، فبالرغم من الملاحظات الحسنة التي دبج بها ملفه بقي سرجان.؟.

اتصل ببرتي، ثم ببقية الجنود الجزائريين وبالحركين الذين لم يكونوا يقومون الا بالاعمال الثانوية و الشاقة، وبدأ في عمله، أو بالأحرى في عملية : مساعدة بيرتي في تسيير الفصيلة، و التزلف اليه لكسب مودته و ثقته، واختيار العناصر الصالحة التي يعتمد عليها..

وخلال الشهر الأول الذي انصرف في الخروج في أعمال التفقد والمراقبة تارة خارج الخط، وتارة داخله، فرغ بلخير من عملية معا، استولى على ثقة بيرتي وفهم جميع زملائه الجزائريين، الطيب منهم و الخبيث، المغفل منهم والفطن، من تمكن مصارحته والاعتماد عليه، ومن يجب الحذر وأخذ الحيط منه.

ولم يبق الا الشروع في العمل الايجابي، بأسرع ما يمكن، وقد شرع فعلا في هذا العمل.

كان الوقت الثالثة بعد منتصف ليلة خرجوا فيها الى جبل بوجابر لنصف كمين لما قد يكون من ثوار، وبينما استغرق بلخير في تفكير عميق، شجعه عليه الظلام الدامس الذي يلتف الكون في ردائه، والسكون العميق الذي يغلف ما حوله كانت أفكاره منحصرة في أمر واحد :

آه، ما أنسبها فرصة للفرار..ماذا لو يتسلل بين تلك الأشجار و الصخور، لا أحد يستطيع أن يتبينه، أو يحاول اللحاق به و مطاردته، هل يعقل أن تضيع هذه الفرصة سبهللا.؟. أليس من الجدير اغتنامها.؟. لكن الامر لو كان يقتصر عليه وحده لحل المشكل وانتهى الامر، لقد اهتدى منذ زمن بعيد الى أن فراره هكذا

وحده و بدون أية هدية يقدمها للثورة، ولو عملية صغيرة، ولكنها بطولية. لا معنى له انما الآخرون، هؤلاء الآخرون الذين معه، ماذا يدور بخلدهم، انهم يتظاهرون له بالود، ربما يحبونه حقا، فهو طيب الى اقصى حدود الطيبة، ولكن هل يخطر لهم أن...ي..ا..

وقبل أن يتمم الكلمة الاخيرة، انتهى الى سمعه صوت الكابران حبايبية يقول همسا وهو يزحف على بطنه نحوه :

- بلخير، اصغ الي يا سرجان..

- ماذا هناك؟ هل لاحظت شيئا.؟.

- ماذا تعني؟ العصاة.؟. يقين أنهم لن يمروا من هنا..فوقتهم فات..إنهم لا يمرون إلا أول الليل..لكن..

- لكن ماذا...؟

- الزبير...

- اقترب مني، أدن، ماذا به الزبير.؟.

- إنه يفكر في الفرار،لا بد أنه يحاول الآن، أو على الاقل يفكر في المحاولة..

- هاه كيف عرفت ذالك.؟.

- لقد راقبته طيلة النهار ففهمت ذلك.. إنه يكون يتحدث و لكن ما أن يبصرني حتى يكف أو يغير موضوع الحديث.. والليلة، الليلة بالذات، حركاته لا تبشر بخير..

- شيء جميل، فائق، رائع، خاروق للعادة..ولكن قل لي، ما الذي يهمك أنت من الزبير أو غيره.؟.

- أجاد أنت يا سرجان ؟ أجاد فيما تقول ؟

- ما رأيك في أن نفر نحن أيضا معه.؟. أما ترى أن الفرصة سانحة؟ لم لا نمحو العار، ونتخلص منه؟

- أجاد أنت يا سرجان؟ أتعني ما تقول ؟.؟

- نعم، أنفر معا؟

- كلا يا سيدي، وأصارحك بأنني ذاهب حالا لأخبر السيد بيرتي..نعم، نعم، لقد كنت أثق فيك يا سرجان.

- اسمع، تعال هنا، انني لو كنت فارا حقيقة لن أترك لك الفرصة لاخبار السيد بيرتي.؟. هات يدك، انني أشكرك جدا على اخلاصك هذا، على وفائك هذا، على فطنتك وتيقظك هذين.. إنني في حاجة الى أمثالك..كن مطمئنا، لن يستطيع أي كلب الفرار، إنني لم أتحصل على رتبة سرجان إلا بعد اعمال تعجز طيلة عمرك عن القيام بنصفها..اسمع اطلب من الزبير أن يأتي الي حالا..

- الاولى أن تحرسه بنفسك يا سرجان، إن له أخا مع العصاة، إن هذا وحده يكفي لشنقه..

لما استلقى الزبير بالقرب من بلخير وراء الصخرة، صمم على انكار ما نسبه حبايبية إليه، مدعيا أن بينهما حزازات قديمة وأنه لم يفكر قط في الفرار..

وعبثا حاول بلخير، أن يتحصل على ثقة الزبير ليلتها، فأخفى امتعاضه، وأجل الأمر الى المستقبل القريب.. مكتفيا بالخيط الاول الذي عثر عليه..

***

على الساعة الثانية عشرة من نهار الغد عادت الفصيلة الى المركز، فكان أول ما قام به بلخير، أن بلغ أمر حبايبية و الزبير الى القبطان، خشية أن يسبقه

الكابران بذلك، مؤكدا أنه يثق الثقة المطلقة في الزبير، و أن حبايبية انما يسعى فقط الى لفت الانظار اليه، وليرقى بالتالي.

أمر القبطان باحضارهما معا، وبعد بحث خفيف قال في لهجة صارمة :

- لا أريد الاساطير العربية في السرية أبدا، منذ اليوم، أفهمتم.؟.

وشعر الزبير منذ تلك اللحظة بميل غريب نحو بلخير، وانشغل بالتكير في أمره.. من يكون يا ترى، هذا السرجان؟ انه ليس بمجرد متطوع، بائع ضميره ونفسه.. أبدا ليس بلخير، كذلك.؟. انما هو مجاهد.. مثل أخيه يرتدي اللباس الفرنسي.. يختفي فيه..

رباه، لو تصدق هذه الظنون، لولا تخيب آماله فيه...ولكن أية آمال يعلقها عليه.

آمال عراض في الواقع .. آمال كبرى..أنه رفيق.. ونعم الرفيق مساعد قائد الفصيلة..

بيد أن الحذر مطلوب، والحيطة ضرورية.. اذن، فلينتظر حتى يتجلى الامر، ويقين أن بلخير سيقوم ببادرة إن كان حقا صادقا فيما ادعاه البارحة..

وفعلا كان الأمر مثل ما خمن الزبير، فقد ناداه بلخير، في مساء ذلك اليوم، وعرض عليه اصطحابه في نزهة قصيرة، فلبى عرضه شاكرا مغتبطا...

وعلى مسافة مائة متر تقريبا عن المركز، وكانت أشعة غزالة الاصيل، تخترق اغصان الاشجار المتكاتفة المتشابكة، وتنعكس على أعنهما، وهبات من نسيم عليل تتموج بين الفينة والاخرى فتداعب وجهيهما..وتحرك في رأسيهما، خواطر شتى، و أفكار مختلفة منها ما يتصل بالماضي، الماضي السحيق، وذكرياته المرة والعذبة معا.. ومنها ما يتصل بالحاضر، الحاضر وما فيه من مخاطر وصراع يعنف تارة ويلين أخرى..ومنها ما يتصل بالمستقبل،

المستقبل الغامض المجهول، وما يكتنفه من سرار ومخاوف. ويخبؤه من مفاجئات..الله وحده أعلم بها..

بعد اطراقة قصيرة قال بلخير:

- الزبير.؟.؟.

- بلخير.؟.؟.؟

- وفي نظرة باهتة التقت عينان عسليتان..عينا بلخير، اللتان طالما أحبتهما العجوز الفرنسية وعشقت جمالهما و عينان بنيتان يتطاير منهما الحذق..عينا الزبير..

لم تطل كثيرا تلك النظرة، فقد مد بلخير يده وتناول يد زميله قائلا :

- الأولى أن نتعاهد قبل كل شيء على أن يحفظ كلانا سر أخيه، مهما كانت الظروف ومهما كان هذا السر..باسم الجزائر، باسم الجهاد، باسم ما نبذله في سبيل محو العار أعاهدك على أن يظل سرك مدفونا في صدري..

- بلخير.؟.

- الزبير؟ إننا إخوان.. أتعاهدني.؟.

- باسم الجزائر، باسم الجهاد، باسم ما نبدله في سبيل محو العار، أعاهدك على أن يظل سرك مدفونا في صدري

- أتعرف إذن ما ينبغي أن نفعله.؟.

- أن نفر طبعا..

- كلا لو أن الامر يقتصر على الفرار لهان.. و لحل المشاكل.. انه ليس صعبا أن نفر منذ الآن، فقط أن نذهب بين هذه الأشجار ولا نعود.. انما.. أن نمحو العار، بعملية يسجلها لنا التاريخ في صحفاته الذهبية.. أفهمت يا أخي.؟ ينبغي أن

نقنع كل من نستطيع إقناعه بوجوب الفرار، ومحور العار، وبعد ذلك نرتب الأمر ونسطر البرنامج، و الشيء الذي ينبغي أن نجعله نصب أعيننا، هو السرعة، لأن التجارب علمتني أن الروح الوطنية إذا استيقظت دفعت صاحبها الى الطفرة والانتفاضة، وقد لا تكون هذه الطفرة منظمة، فتعود بالضرر من حيث كان يرجى منها النفع..أفهمت.؟. يجب إختيار الرفيق قبل الطريق- كما يقول المثل- وحين يتم إختيار الرفيق.. اخضعه للتجارب: لا تظهر له جدك من عبثك و هزلك، ولاحظ رد فعل الصراع الذي يعيشه وادرس جيدا مبادراته..أفهمت؟

- أي ثوري أنت!. لكن قل لي ماهي ثقافتك.؟.

- إن ما أقوله فقط اكتسبه من التجارب، من مدرسة الحياة، أما ثقافتي فهي حصيلة ثلاث سنوات في المدرسة..

- أما أنا إفانني متحصل على الجزء الاول من شهادة الباكالوريا؛ لقد صدق من قال : (أسأل المجرب و لا تسأل طبيبا) ان شعبنا له فلسفة عبقرية، أما ترى أن كل ما نظنه جديدا واكتشافا من طرفنا، نجده معبرا عنه من طرف شعبنا حقا إن الفلسفة من صنع الشعب لا من صنع الفلاسفة..

- المهم أن نفهم بعضنا، ان نفهم ما نفعله..

* * *

ما أشبه الليلة بالبارحة..

الانتظار..الانتظار..الذي قضى على خطتك يا بلخير في بو حجار، هو الذي تتخبط فيه الآن..، ما أبشع الانتظار، ما أشقه على النفس، أبدا أصعب شيء في الحياة هو الانتظار...أخي ما أمرن هذه الكلمة..الانتظار.

ان التمهل يليق في ظروف دون أخرى، في الظروف الثورية الظروف لا يليق..انما يضر الى أقصى حد، في الحروب وفي الثورات ينبغي الاتقان مع السرعة..تلزم الثائر و الثوري روح المبادرة، روح السرعة.

رباه، ما أقسى ما يعانيه الانسان حين يتفطن إلى أن الليلة هي نسخة من البارحة.

كم يعتريه السأم والضجع و كم تضيق به الدنيا و ما رحبت.. وها أنك بعد مرور شهر على العهد الذي قطعته على نفسك يا بلخير، باسم الجزائر، وباسم الجهاد، وباسم ما تبذله في سبيل محو العار، هذا العار الذي يلازمك، كظلك هنا وهناك، هذا العار الذي ما يفتأ ينغص حياتك منذ برزت الى الحياة، هذا العار الذي كلما أوشكت أن تمحوه، ازداد التصاقا بك، ازداد أمده امتدادا..

ها أنك يا بلخير تنتظر.

فما أشبه الليلة بالبارحة.

الاخوان يسودهم القلق و الارتياب، وتعتورهم الوساوس والهواجس ولربما تسرب اليهم الشك في أمرك، وأنه آن لهم أن يقولوها صريحة جافة :

أيها الخائن أيها العميل..لقد فهمنا حقيقتك.

لا، لا.. مائة مرة ألف لا، لن تطيق سماعها هذه المرة لن تمنح لأي كان الفرصة لكي يقولها لك جافة صريحة : أيها العميل، أيها الخائن..إنك لست كذلك وعليك فقط أن تبرهن على نواياك.. أي نعم.. وستبرهن.

سأبرهن عما قريب، الليلة هذا المساء الليلة، الآن..الآن..حالا..لأذهبن فأبلغ اليهم. الى الاخوان التسعة امر الاستعداد، لنسف المراكز و الفرار الآن وفي وضح النهار..إنهم تسعة، فليقوموا بعملية تمحو العار، ومن نجا، نجا بدون عار، ومن

مات، انما محى العار ومات شهيدا.. وأنا، بلخير مساعدية الأول المستعد للاستشهاد.

الثورية ليست السلوك و التفكير فحسب، الثورية هي انسجام التفكير و السلوك في الوقت الواحد.. نعم نعم.

وفي طريقه الى الاخوان ليبلغ اليهم ما أقر عليهم العزم، التقى بلخير ببيرتي أدى له التحية العسكرية، - رمز العار كما قال في سره- ثم تقدم ليمر في سبيل حاله، بيد أن بيرتي استوقفه، وطلب منه أن لا يوقظ أحدا من الجنود، وأن يصطحبه.

- أعود بالله من الشيطان الرجيم.

قال بلخير في سره ثم سار الى جنب السوليطنان قدما، وبعد بضع خطوات، التفت اليه قائلا :

- بلخير.؟.

- أوامركم.

- أعرف ذلك، يجب أن لا تبقى القفازات دائما بيننا في حديثنا، إننا أولا وقبل كل شيء صديقان..أليس كذلك.؟.أ..أ..أ..ماذا أردت أن تقول؟ إنني في الواقع ما أزال نائما.. لقد أردت أن أقول لك.. ماذا؟ ماذا؟ هاه، لقد تذكرت، اذهب واحضرنظاراتك المكبرة..وتعال، انني في انتظارك.

صعد بلخير وبيرتي درج صومعة المراقبة رويدا، رويدا الى أن بلغا منتهاها فقال بيرتي وهو يشير بأصبعه:

-انظر بلخير، إلى هنالك، سنذهب الليلة أترى تينك البنايتين.؟.

تأمل بلخير البنايتين الواقعتين في المنطقة المحرمة هنيهة ثم قال:

- أترى اليهما، إذن سنذهب الى هناك؟ المسافة ليست بعيدة..لا تتجاوز ثلاثة كيلومترات فيما يبدو.

- بالضبط، لقد أصبت..سنقطع المسافة سيرا على الأقدام على ما أظن..هيا بنا الى المكتب..إياك أن توقظ أحد، دعهم يأخذون نصيبا كافيا من الراحة، فمن يدري ما تكونه المفاجئات، على كل نحن سنكمن فقط، هكذا قيل لي، بيد أنني أعتقد، أن هذا الكمين سيكون من نوع خاص..المشحون بالمفاجئات لأن الاسلاك قطعت البارحة و لا بد أن تكون هناك قافلة من الخارجين عن القانون مارة الليلة.

- كم أنا متشوق الى لقائهم يا سيد بيري.

- ماذا تقول بلخير.؟.

- إنني اخترت خط شال لأنه أكثر مكان تجري به العمليات و المعارك، و لكن مع الأسف الشديد لم يصادف قط أن قتلت و لو (فلاقا) واحدا منذ دخلت الجيش الفرنسي..

- شكرا بلخير قد نلتقي بهم الليلة؟؟

- يقين أننا سنلتقي بهم.

قال بلخير، وكأنما يخاطب نفسه إلا أن بيرتي كان قد سمعه، فبادره :

- يقين.؟. من أدراك؟ أيها أن تقول مثل هذا الكلام أمام الجنود..

ابتسم بلخير في سره ثم قال :

- ان فصيلتنا لا تتكون إلا من الشجعان.. إنهم كلهم يتطلعون إلى اليوم الذي يبرهنون فيه عن شجاعتهم.

وفي المكتب استند بلخير بيده على المنضدة يمتص من السيقارة التي في فمه، ويملي على بيرتي أسماء من يعتقد في شجاعتهم : الكابران حبايبية، الشاب الزبير.. الى آخره.. ومن بين الاثنين و العشرين الذين اختارهم، أحد عشر معه و أحد عشر مع بيرتي، عين أربعة من الاخوان : معه واربعة مع بيرتي الذي كان الاختيار محل رضاه، وإعجابه، في نفس الوقت..

وحالما استيقظ الجنود و كانت الساعة تشير الى العاشرة صباحا، و الطقس بالرغم من الضباب الكثيف الذي جثم على الكون قبل ذلك جميلا يبشر بيوم مشمس دافئ..أسرع بلخير، فعين ثمانية للقيام بشدف الحطب للضباب.

كان الثمانية الذين عينهم الاخوان.. وما أن انفرد بهم حتى أطلعهم عن الامر قائلا :

- إن لم نفر الليلة، فلن نفر أبدا، و إن لم نمح العار الليلة فسيلازمنا الى الأبد.. لقد وزعتكم أربعة مع بيرتي و أربعة معي، الأربعة الذين معي سأعين لهم عملهم فيما بعد، أما الأربعة الأخرون فحالما ينتهي الى سمعكم اطلاق النار، ألهبوا الفرنسيين الذين معكم بالرصاص، ثم خيروا المسلمين بين الفرار معكم أو الموت، يجب أن يتم كل هذا بسرعة فائقة..الموت أو الحياة.. من تردد مات ومن قبل الفرار فحبذا..أما ما ينبغي أن لا يغيب عن بال أحد فهو حمل أقصى ما يمكن من الأسلحة و الذخيرة..أفهمتم.؟. الفصيلة بلغت البنايتين، هتين البنايتين اللتين كانتا ذات يوم، آهلتين بالسكان، زاخرتين بآمالهم وأحلامهم، مزدهرين بنشاطهم، وبين صبحة وضحاها أقفرتا و خلتا إلا من البوم و الحمام، بعد أن أحدثت المنطقة المحرمة، فأضحتا بدورهما خراما على من بناهما..

- أم بيرتي و اليوتنان و الاحد عشر جنديا الذين معهما بناية، و أم بلخـــير وجماعته البناية الاخرى البعيدة عنها بنحو ثلاثمائة مترا أو يزيد، و فور الوصول شرع بلخير في ترتيب زملائه في أماكنهم.. وضع خمسة، الاخوان الاربعة وحبايبية في المقدمة، أحبايبية طبعا في الوسط وخلفهم على بعد خمسين مترا وضع الكابران مير و الجندي مالافال و المدفع الرشاش و قذافه المسلم و بالقرب منهم بقية الجنود.

تفقد الشاب السرحان مير ومن معه، فألقى عليهم نظرة فاحصة، ثم عاد الى حيث يمكن الكابران أحبايبية بالاخوان الأربعة، فوقف عند رأسه والقى نظرة خاطفة عليه و على المدفع الرشاش.

..انه منبطح و يداه في جيبيه، المدفع بعيد عن متناول يده..فرصة سانحة اذن؟ فليغتنمها.

وضع قدمه على المدفع ثم شهر مدفعه الرشاش الذي على كتفه في وجه احبايبية قائلا :

- ارفع يديك ايها الخائن.

قهقه الكابران قائلا :

- دعنا من الهزل، الناس لا يهزلون بالسلاح يا سرجان.

- قلت لك ارفع يديك والا أطلق النار، هيا.

لم يرفع يده، ولم يأخذ كلامه و تهديده مأخذ الجد، فقد حمله محمل الهزل و المداعبة، الا أن الوقت الكافي للهزل و المداعبة لم يكن بالمتوفر، فقد بادر السرجان باصدار الامر إلى إخوانه :

- أوثقوه بالحبال، أسرعوا، أما أنت فإياك أن تتحرك ولو قيد أنملة.

ارتمى الشبان الاربعة على الكابران واخرجوا الحبال التي كانت في جيوبهم، وانهمكوا يحاولون شد وثاقه إلا أنه بادر فأرسل صرخة استنجاد، فلم يكن من بد سوى القضاء عليه، فهوى بلخير على رأسه ببندقية فتشدخ مثلما تشدخت البندقية أيضا، و أخرج أحد زملائه موسى وانكب على رقبته يحاول حذفها، بينما اصطحب بلخير الزبير و أم الجماعة الأخرى و لم يكد يصل حتى بادره مير يسأله :

- ما هذا الأنين؟؟

- كلب حاول الفرار فضربته.

- وماذا يفعل الآن؟ هل أخبرت عنه؟

أخبرت فقيل لي أحرسوه حتى يأتيكم الامر، ولكن ليست لي ثقة في الذين يحرسونه و الاولى أن تحرسه بنفسك هيا معي بالكلب البوليسي..

- اذهب معه يا مالافال، خذ الكلب معك.

ولما عاد بلخير بمالافال التفت اليه مشهرا مدفعه و خاطبه :

- ارفع يديك، حالا، بلا تردد.

أودعه الى زملائه حين رفع يديه فجردوه من السلاح، وامرهم بالانصراف به تم عاد الى الكابران مير فوضع السلاح الذي على كتفه في الارض ثم ارتدى المعطف و عبأ القنابل اليدوية في جيوبه و أعاد السلاح الى كتف، ووضع الاسلكي اليدوي في كتف أخرى و أصدر أمرا الى القذاف أن يحضر له قهوة من جرابه هو، الذي يعرف أنه وضعه داخل البناية و لما عاد بالقهوة احتساها بهدوء تام، ثم...ثم ....ثم...ث..ث.م التفت الى مير وضغط بأصبعه على الزناد.

تأوه مير ثم سقط طريح الارض تنزف منه الدماء، وفي تلك اللحظة بالذات التفت الى القذاف و أمره بأن يرفع يديه إلا أنه أسرع فانبطح على بطنه، فضغط على الزناد مرة أخرى وجمد القذاف، ثم التفت الى الآخرين في سرعة عجيبة فأطلق النار على من صمم قبلا على قتله إما لأنه ميؤوس منه، وإما لأنه ارتكب ما يستوجب قتله من الجرائم، وبينما هو يخير البعض بين الالتحاق بالثورة أو الموت إذا بالقذاف يزحف على بطنه نحو المدفع.. كان لم يمت بعد.. انما حذمت ساقاه فقط، فضغط مرة أخرى بلخير على الزناد فتطاير رأس القذاف شدفا ولكن في تلك الاثناء أيضا، انبعثت آهة من صدر يضم قلبا حبيبا..

الزبير..مسكين الزبير لقد انذهل فبقى جامدا لا يعى شيئا مما يدور حوله..فأصيب..، مسكين هو الزبير..

أطلق بلخير النار على من تردد أو رفض أن يمحو العار.. ثم أطلق ساقيه للريح ليلفه رداء البهلمة و يحتظنه الجبل الحبيب مثل بقية اخوانه.

وعند منتصف الليل تبادل الاشارات الضوئية مع بقية الاخوان، وبعد أن سألهم عن الاسير و كلبه، علم أنه أبى المسير فقتلوه، وكذلك كان مصير الكلب.

انتظر معهم قليلا لعل أحد يلتحق بهم، ثم استأنف بهم السير و في منتصف نهار الغد فوجئوا بالكلب يطل عليهم.. لقد انبطح حين سقط صاحبه فظنوه مات..إلا أنه ها هو ذا، أخذوه معهم ثم واصلوا الطريق..

وان هي الالحظات، حتى بانت مراكز المجاهدين فتنفس الشبان الصعداء، وهمس من همس منهم مثل بلخير:

- لقد انمحى العار.

فهرس

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2004

Printed in Algeria



En couverture : détail de la toile de MESLI
"Ancêtres cavaliers, 1967 "